

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

حِينَ تُخْرِجُ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَيَرَى الْإِنْسَانُ أَثَرَهُ

تَأْلِيف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

حِينَ تُخْرِجُ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَيَرَى الْإِنْسَانُ أَثَرَهُ

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

المقدمة المنهجية

حين لا يبقى في الوجود شيء صامت

ليست سورة الزلزلة وصفاً عابراً لا اضطرابٍ كونيّ يقع في آخر الزمان، ولا مشهداً مفزعاً يُراد منه أن ترتجف المشاعر لحظةً ثم تعود إلى سكونها القديم؛ إنها سورة تهزّ البنية التي أقام الإنسان عليها شعوره بالأمان، وتتزع من تحت قدميه ذلك الوهم العميق الذي يجعله يتعامل مع الأرض كأنها قرارٌ أبدي، ومع الزمن كأنه نهرٌ لا ينتهي، ومع أفعاله كأنها تبدد بعد وقوعها فلا تحفظها ذاكرة، ولا تستبقها ذرة، ولا تستدعيها محكمة. تأتي السورة لتقول له في كلمات قليلة، ولكنها مشحونةً بهيبة المصير: إن الأرض التي تمشي عليها ليست جماداً محايداً، وإن الأيام التي تعبرها ليست فراغاً خالياً، وإن خطواتك التي تظن أنها ذابت في الطريق لا تزال محفوظةً في أعماق الوجود، تنتظر اليوم الذي يؤذن الله لها فيه أن تظهر، وأن نتكلم، وأن تقيم شهادتها بين يديه.

ثماني آيات فقط، ولكنها تقلب صورة العالم في الوعي الإنساني: الأرض الثابتة تنزل، والأرض الصامته تتحدث، والأرض الحاملة تخرج أثقالها، والإنسان الذي كان يمشي عليها واثقاً يقف أمامها متسائلاً: ما لها؟ ثم تبدل المقاييس كلها، فلا يعود العمل الصغير صغيراً، ولا يبقى الخير الضئيل ضائعاً، ولا ينجو الشر الدقيق من الظهور؛ إذ تتراجع أجام الأشياء التي صنعها الوهم، ويقوم ميزان الله الذي لا تضيع فيه مثقال ذرة، ولا يُظلم عنده خاطرٌ صالح، ولا تُنسى فيه دمة مظلوم، ولا تسقط منه ابتسامة رحيمة، ولا تختفي في ظله نظرة خائنة أو كلمة جارحة أو نية سوداء.

وسنضي في تدبر هذه السورة من ظاهر ألفاظها وسياقها إلى آفاقها التربوية والفكرية والإنسانية، من غير أن نحمل كلماتها ما لا تحتل، أو نستبدل بحقائق الغيب رموزاً بشرية تُفرغها من جلالها؛ فالزلزلة في أصل دلالتها زلزلة القيامة الحقيقية، وإخراج الأرض أثقالها حقيقة من حقائق ذلك اليوم، وحديثها شهادة يأذن الله بها، وبعث الناس وعرض الأعمال والجزاء عليها حقائق لا مجازات. ثم يظل للتأمل بعد تثبيت المعنى فسحة واسعة: ماذا تصنع عقيدة البعث في ضمير الإنسان؟ وكيف يتحول العالم من مادة صامته إلى سجل أخلاقي؟ وكيف تعيد الذرة بناء تصورنا عن الخير والشر؟ وكيف ينقذنا استحضار النهاية من غفلة الطريق؟

إن المنهج هنا يقوم على قراءة السورة بوصفها وحدة متماسكة تبدأ بزلزلة المكان، ثم تنتقل إلى دهشة الإنسان، ثم تكشف ذاكرة الأرض، ثم تجمع الخلائق في ساحة العرض، وتنتهي بالذرة التي لا تضعيع؛ فكأن السورة تأخذ الإنسان من أوسع مشهد كوني إلى أدق وحدة في ميزان العمل: تبدأ بالأرض كلها وهي تضطرب، وتنتهي بذرة واحدة وهي تظهر. وبين الأرض والذرة يقف الإنسان، لا يملك أن يهرب من التاريخ الذي كتبه بيديه، لكنه يملك قبل مجيء ذلك اليوم أن يعيد كتابة ما بقي له من العمر.

هذه ليست سورة الخوف وحده؛ إنها سورة العدالة كذلك. فالزلزلة التي تهدم استقرار العالم القديم تمهد لقيام عالم لا يضيع فيه حق، والبعثرة التي تُخرج ما خفي لا تهدف إلى الفضيحة المجردة، بل إلى الفصل الكامل بين الحق والباطل، والإحسان والإساءة، والدعوة التي ذهبت هدرًا في محاكم الأرض والدم الذي لم يجد من ينصفه. إنها بشرى لكل خير نسيه الناس، ونذارة لكل شر حسب صاحبه أن النسيان قد ستره إلى الأبد.

ومن هنا، فإن الرحلة في سورة الزلزلة ليست انتقالاً بين مشاهد القيامة فحسب، بل هي عودة إلى الحياة الحاضرة بعينٍ جديدة: عين ترى في كل لحظة بذرة مصير، وفي كل خطوة أثراً باقياً، وفي كل اختيار شهادةً ستُنطق بها الأرض، وفي كل ذرة من الخير فرصةً للنجاة. إن السورة لا تدعونا إلى الفرار من الدنيا، بل إلى العيش فيها بضمير الآخرة؛ ولا تطلب منا أن نخاف الأرض، بل أن نخاف ما نودعه فيها من آثار؛ ولا تريد أن تشلنا رهبة الحساب، بل أن نوقظ فينا يقظة العمل، حتى يصبح اليوم القصير مزرعةً لما سنراه غداً طويلاً ممتداً لا ينتهي.

الفصل الأول

الزلزلة الكبرى: حين يسقط وهم الثبات

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾

تفتتح السورة بكلمةٍ تفتح باب المستقبل المحتوم: ﴿إِذَا﴾. وليست «إذا» هنا احتمالاً معلّقاً قد يقع وقد لا يقع، بل موعدٌ مؤكّدٌ لم يُذكر توقيته ليظل الإنسان في حالة استعداد له، كأن الغيب يقول: لا تسأل متى تقع الزلزلة، ولكن اسأل ماذا أعددت لها؛ فجهل الساعة ليس نقصاً في المعرفة التي يحتاج إليها الإنسان، بل عنصرٌ من عناصر التربية، لأن معرفة الموعد ربما أغرت بالتأجيل، أما خفاؤه فيجعل العمر كله ساحة استعداد، ويقيم القلب بين الرجاء والخشية، فلا يركن إلى زمنٍ يظنه مضموناً، ولا يؤخر توبته إلى غدٍ لا يملك وثيقةً تثبت أنه سيبلغه.

﴿زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾؛ والمبني للجهول هنا لا يحجب الفاعل عن قلب المؤمن، فالذي يزلزلها هو ربها، والذي أمسكها دهوراً أن تميد بأهلها هو الذي يأذن لها في ذلك اليوم أن تنفض عنها ثباتها. إنها لا تثور على خالقها، ولا تنفلت من نظامه، بل تدخل في طور جديد من أطوار عبوديتها؛ فقد كانت طائعة وهي مستقرة، وهي طائعة حين تتزلزل، وكانت ممثلة حين حملت البشر فوق ظهرها، وهي ممثلة حين تلقي ما في جوفها وتعلن انتهاء مهمتها القديمة. وليس في الوجود تمردٌ على سلطان الله؛ إنما تتغير صور الامتثال حين يتغير الأمر الإلهي، ويظل الكون كله في مقام العبودية، بينما يتوهم الإنسان وحده أنه يستطيع أن يخرج عن هذا المقام.

والزلزلة تكرار للحركة واضطرابٌ متتابع لا يستقر معه شيء في موضعه، وقد جاء الفعل نفسه مشحوناً بجرسٍ يكاد يحاكي رجفة الأرض: زُلْزِلَتْ. حروف تتردد كما يتردد

الاضطراب، حتى ليصل المشاهد إلى السمع قبل أن يستقر معناه في العقل. وليس ذلك زلزالاً محدوداً يقع في بقعةٍ من الأرض، فتظل البلاد الأخرى آمنةً تتابع أخباره من بعيد، وإنما هو ﴿زَلْزَالَهَا﴾؛ زلزال الأرض الذي يناسب ذلك اليوم، الزلزال الذي أدخر لها منذ خلقت، والذي تبلغ به الحركة غايتها، وينتهي معه النظام الذي عرفه البشر، وتهاوى أمامه كل مقاييسهم للثبات والأمان.

إن الإضافة في قوله تعالى: ﴿زَلْزَالَهَا﴾ توحى بأن للأرض زلزالاً مخصوصاً بها، كما أن لكل حقيقة لحظة اكتمال تنكشف فيها على صورتها القصوى. لقد عرف الإنسان زلازل كثيرة، ورأى مدناً تتصدع، وجبالاً ترتجف، وبيوتاً تتحول في لحظات إلى ركام؛ غير أن تلك الزلازل، مهما بلغت شدتها، تظل إشارات صغيرة إلى الزلزلة الكبرى، ونوافذ خاطفة يطل منها القلب على هشاشة العالم الذي يراه صلباً. ففي الزلازل المحدودة تبقى أرضٌ يهرب الإنسان إليها من أرض، ويخرج من مدينة منكوبة إلى مدينة آمنة، أما حين تُزلزل الأرض زلزالها فلا خارج يمكن الفرار إليه؛ لأن المسرح كله يهتز، والمكان الذي كان يحتوي حركة الإنسان يدخل هو نفسه في الحركة، والملجأ الذي كان يحتوي به يصبح جزءاً من الحدث.

كان الإنسان يظن الأرض أثبت الأشياء، ويبني معنى الطمأنينة على سكونها؛ فإذا أراد أن يصف رسوخ شيء قال إنه ثابت ثبات الأرض، وإذا أراد أن يشعر بالأمان بحث عن موطنٍ قدم. لكن السورة تبدأ بتخطيم هذا المقياس: الأرض نفسها ليست أصل الثبات؛ فنباتها عارية من أمر الله، وسكونها نعمة متجددة لا صفة مستقلة عنها. إنها مستقرة لأن الله أمسكها، فإذا جاء أمره تحرك ما كان ساكناً، واضطرب ما كان قراراً، وسقطت العلاقة القديمة بين الإنسان والمكان. وهنا ينكشف توحيد عميق: لا

ثابت على الحقيقة إلا الله، ولا أمان مطلقاً إلا في جواره، وكل ما عداه قائم بإقامته، محفوظ بحفظه، باقٍ ما أذن له بالبقاء.

وما أكثر ما يبني الإنسان حياته على ثوابت متوهمة تشبه الأرض قبل زلزالها؛ يظن ماله ثابتاً، ومكانته ثابتة، وقوته ثابتة، وعلاقاته ثابتة، وصحته ثابتة، ثم تأتيه زلزلة صغيرة من زلازل الحياة فتخبره أن ما استند إليه لم يكن جداراً، بل ستاراً رقيقاً أخفى عنه فقره إلى الله. غير أن السورة لا تريد أن تحول حياته إلى قلق مَرَضِيٍّ، بل تريد أن تنقل مركزته من الأشياء المتحولة إلى رب الأشياء، فمن توكل على المال ارتجف كلها اضطرب السوق، ومن توكل على المنصب ارتجف كلها تغير السلطان، ومن توكل على البشر ارتجف كلها تبدلت القلوب، أما من استند إلى الله فإنه يعلم أن العالم كله قد يتزلزل، ولكن ربه لا يتغير، وأن الأسباب قد تنقطع، ولكن مسببها لا يعجز، وأن الأرض قد تزول من تحت القدمين، ولكن طريق القلب إليه لا يزول.

ثم يقول تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، فكأن الزلزلة ليست حركة بلا غاية، بل مقدمة لإخراج ما استقر في الأعماق. الأرض التي ظلت تحمل في جوفها أجساد الأجيال، وتضم تحت طبقاتها القرون المتعاقبة، وتبتلع في صمتٍ ملوكاً وفقراء، ظالمين ومظلومين، معروفين ومجهولين، يؤذن لها أن تلقي أحمالها، فلا يبقى في بطنها ما كان مستوراً. إنها لحظة تنتهي فيها وظيفة القبر بوصفه حجاباً بين الإنسان والعالم، وتفتتح الأبواب التي أغلقت طويلاً، ويقوم الذين حسب أهل الدنيا أنهم انتهوا، فإذا موتهم لم يكن فناً، بل انتظاراً في مرحلة من مراحل الطريق.

وسمّت الآية ما في الأرض ﴿أَثْقَالَهَا﴾، والثقل هو الحمل الذي ينوء به حامله؛ وكأن الموتى الذين ضمتهم الأرض منذ بدء الخليقة صاروا أثقلاً مودعة في جوفها، حتى إذا جاء يوم البعث أخرجتهم بأمر ربها. وقد يدخل في عموم الصورة ما أودعه الله في باطنها

مما يشاء إخراجه في ذلك اليوم؛ فالأرض تفتح خزائنها، وتلفظ أسرارها، ولا يعود الباطن باطناً، ولا المستور مستوراً. إن القيامة في جوهر مشاهدتها الكبرى انتقال من الخفاء إلى الظهور: تخرج الأجساد من القبور، وتخرج الأعمال من سجلاتها، وتخرج النيات من الصدور، وتخرج الحقوق من ظلمات النسيان، حتى يقف الإنسان أمام حقيقة نفسه بلا ستار.

لقد استقبلت الأرض أجساداً لا يحصيها البشر؛ مات أناس في البحار، واحترق آخرون، واقتربت الوحوش أجساداً، وتفرقت ذرات بشر في الصحارى والوديان، وامتزج تراب جيل بتراب جيل، ولكن ذلك كله لا يشتبه على من أحاط علمه بكل ذرة. فما يبدو للعقل البشري تفرقاً يستحيل جمعه، هو في علم الله حاضر لم يغب، معلوم لم يلتبس، محفوظ لم يضع. والذي أنشأ الإنسان من عدم لا يعجزه أن يعيده من أثر، والذي أحصى عليه خطرات قلبه لا تخفى عليه ذرات جسده، والذي حفظ عمله الدقيق قادر على أن يعيد كيانه كاملاً ليقف بين يديه.

وتحمل الآيات مفارقةً تهز الوعي: في الدنيا كان الإنسان يودع الموتى في الأرض ثم يعود، فينقص عدد الأحياء فوقها ويزداد عدد المدفونين تحتها، حتى تبدو المقابر كأنها الأبواب الأخيرة التي لا عودة منها؛ أما في ذلك اليوم فإن الأرض تعكس حركتها القديمة، فلا تبتلع بل تُخرج، ولا تستر بل تكشف، ولا تضم بل تلقي. كل ما دخلها بأمر الله يخرج منها بأمر الله؛ وكأنها تقول للإنسان: لم أكن النهاية كما ظننت، بل كنت ممراً خفياً إلى موعد آخر.

وهذا الإخراج يحمل عزاءً عظيماً للمظلومين؛ فكم من جسد ووري التراب وقصته لم تُرو، وكم من قتيل جُهل قاتله، وكم من إنسان مات وفي صدره مظلمة لم يسمع بها قاضٍ، وكم من جريمة ابتلعها المكان وظن مرتكبها أن الأرض قد كتبت السر إلى

الأبد. غير أن الأرض ليست شريكاً في الجريمة، وصمتها ليس نسياناً؛ إنها تحفظ ما جرى فوقها حتى يأتي اليوم الذي تحدث فيه، وتخرج ما في جوفها، وتقيم شهادتها بأمر ربها. قد ينجو المجرم من وثائق البشر، لكنه لا يستطيع محو ذاكرة الوجود، وقد يُدفن المظلوم بلا شاهد، لكن التراب الذي احتضن جسده ليس غائباً عن محكمة الله.

وفي الآيتين كذلك تحرير للإنسان من عبادة المظاهر؛ فكل ما يتباهى به الناس فوق الأرض سينتهي إلى باطنها، ثم يخرجون منها مجردين من الألقاب والأملوك والزينة. الملك والفلاح، الغني والفقير، السيد والتابع، من كانت له القصور ومن لم يجد مأوى؛ كلهم يدخلون من الباب الأرضي نفسه، ثم يخرجون إلى الساحة نفسها، ولا يصحب أحداً منهم إلا عمله. هناك تسقط الفوارق التي صنعها الاجتماع البشري، وتبقى الفوارق التي صنعها الإيمان والتقوى والعدل والإحسان؛ فلا قيمة يومئذ لما كان الإنسان يملكه، وإنما القيمة لما صار إليه قلبه وما قدّمته يده.

وإذا كانت الأرض ستخرج أثقالها في النهاية، فإن في الآية دعوة خفية إلى أن يخرج الإنسان أثقال قلبه في الدنيا قبل أن تخرج الأرض أثقالها في الآخرة؛ أن يخرج ثقل الحقد بالعفو، وثقل الذنب بالتوبة، وثقل المظالم برد الحقوق، وثقل الرياء بالإخلاص، وثقل الكبر بمعرفة أصله ومصيره. فما أشد خفة القلب الذي لا يحمل إلى القيامة مظلمة، وما أثقل الخطوة التي تسير إلى الله محملة بحقوق العباد. إن التوبة زلزلة اختيارية يهز بها الإنسان بناء الغفلة في نفسه، قبل أن تأتي الزلزلة التي لا اختيار له فيها؛ وهي إخراج مبكر لما تراكم في باطن الروح، قبل أن يصير السر علانية في يوم لا ينفع فيه الندم.

هكذا تبدأ السورة: الأرض التي حسبناها مسرح الأحداث تتحول إلى حدث، والمكان الذي شهد الحكاية يتهيأ للنطق بها، والقبور التي ظنّت خواتيم تصبح أبواباً، والثبات الذي ركن إليه الإنسان يتصدع في لحظة واحدة. وفي قلب هذا الانقلاب

يقف السؤال الأخطر: إذا كانت الأرض ستغير إلى هذا الحد، فكيف يبقى الإنسان كما هو؟ وإذا كانت الصخور نفسها ستخلع من سكونها، فكيف يظل القلب ساكناً أمام وعد الله؟ وإذا كان الوجود كله يستعد ليوم الكشف، فبأي معنى يواصل المرء دفن ضميره تحت ركام التأجيل؟

إن أول زلزلة تريد السورة إحداثها ليست تحت الأقدام، بل داخل الوعي؛ لأن من اهتز قلبه اليوم خشيةً واستعداداً ثبَّته الله غداً، ومن بقي قلبه جامداً حتى تزلزلت الأرض من تحته أدرك الحقيقة بعد أن انقضى زمن الاختيار.

الفصل الثاني

سؤال الدهشة وشهادة المكان: حين تنطق الأرض بما جرى عليها

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُهَا أَخْبَارَهَا﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿

في اللحظة التي تفقد فيها الأرض سكونها، وتخرج أثقالها، وتسقط القواعد التي استند إليها الإنسان في فهم العالم، لا يجد أمام هول المشهد إلا سؤالاً قصيراً تتجمع فيه الدهشة والخوف والعجز: ﴿مَا لَهَا﴾؟ إنه سؤال من رأى المألوف ينقلب أمامه انقلاباً كاملاً، فالأرض التي عرفها مهاداً أصبحت حركة جارفة، والتي اعتادها حاضنة صامتة أخذت تدفع ما في جوفها إلى الخارج، والتي أقام عليها بيته وطريقه وسوقه وحضارته لم تعد تقبل أن تستمر في وظيفتها القديمة. وحين يعجز الإنسان عن تفسير ما يرى، ينطق بالسؤال الذي يكشف أنه كان يعيش على ظهر الأرض دون أن يعرف حقيقتها النهائية، ويستعمل نعمها دون أن يتأمل تبعيتها لأمر ربها، وبحسب دوام نظامها حقاً مكتسباً، مع أنه كان رحمة مؤقتة لها أجل لا تتجاوزه.

لم يقل: ما لنا؟ مع أن الخوف يملأ الناس، وإنما قال: ﴿مَا لَهَا﴾؛ لأن التحول الظاهر أصاب الأرض نفسها، فكأن الإنسان ينظر إليها مذهولاً ويسأل عن السر الذي أخرجها من طبيعتها التي عرفها. وما كان يعلم، أو ما كان يستحضر، أن طبيعتها التي ألفها لم تكن إلا مرحلة من مراحل خلقها، وأن السكون ليس حقيقتها الأبدية، بل وظيفتها في زمن التكليف، فإذا انقضى ذلك الزمن بدأت وظيفتها الجديدة: أن تهتز، وتخرج، وتحدث، وتشهد. لم يطرأ على ملك الله شيء لم يكن في علمه، ولكن الذي طرأ هو انكشاف ما كان مستوراً عن الإنسان؛ والقيامة كلها ليست مفاجأة لله تعالى، بل مفاجأة للخلق الذين لم يعيشوا على قدر الخبر الذي جاءهم بها.

و«الإنسان» في الآية اسم الجنس، يصور حال البشر أمام هذا المشهد؛ والمؤمن وإن كان يعلم في الدنيا أن الزلزلة آتية، فإنه يشهد يومئذ من هول حقيقتها ما يتجاوز كل تصور سابق، أما الجاحد فتكون دهشته مضاعفة، لأنه لا يواجه مشهداً مرعباً فحسب، بل يواجه انهيار التصور الذي بنى عليه حياته كلها. لقد كان يقول إن الموت نهاية، فإذا الموتى يخرجون، وكان يرى الأرض مادة صامتة، فإذا هي تنطق، وكان يتعامل مع أفعاله كأنها أحداث تنقضي، فإذا بها أخبار محفوظة تستعد الأرض لروايتها. لا ينهار تحت قدميه سطح الأرض وحده، بل ينهار داخله عالم كامل من الإنكار والتبرير والغرور.

وما أكثر ما يقول الإنسان في الدنيا: ما لهذا الذي جرى؟ حين تتغير عليه الأحوال فجأة، أو يسقط ما ظنه راسخاً، أو تكشف المحنة ضعف الأسباب التي اتكأ عليها. غير أن أسئلته في الدنيا يمكن أن تصبح أبواباً للمعرفة والرجوع؛ فالحدث إذا هز الحياة قد يوقظ القلب، والخسارة قد تعيد ترتيب القيم، والمرض قد يكشف زيف الاغترار بالقوة، والموت القريب قد يفتح نافذة على الآخرة. أما سؤال ﴿مَا لَهَا﴾ يوم القيامة فلا يفتح باباً جديداً للعمل، لأنه سؤال جاء بعد إغلاق زمن التكليف؛ هناك تنكشف الإجابة، ولكن المعرفة المتأخرة لا تمنح صاحبها فرصة إعادة الكتابة.

إن قيمة السؤال لا تكمن في صدقه وحده، بل في توقيته كذلك؛ فمن سأل اليوم: ما لهذه الدنيا تتغير؟ ولماذا يموت الناس؟ وإلى أين تذهب الأعمال؟ وما الذي يبقى بعد انقضاء العمر؟ قاده السؤال المخلص إلى الوحي، وقاده الوحي إلى الاستعداد. أما من أخذ هذه الأسئلة بلهوه، ودفنها تحت العادة، وواصل سيره كأن الطريق لا نهاية له، فسيسأل يوماً حين تصبح الإجابة مشهداً، لكن السؤال آنذاك سيكون تعبيراً عن

الصدمة لا طريقاً إلى النجاة. كم من حقيقة يعرفها الإنسان حين لا تعود معرفتها نافعة، وكم من موعظة يرفضها وهي كلمة رحيمة، ثم يلقيها واقعاً لا يستطيع رده.

ثم تأتي الإجابة على دهشة الإنسان من حيث لا يتوقع: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾. لم تعد الأرض موضوع السؤال فقط، بل صارت صاحبة الجواب؛ فهي لا تكتفي بأن تتزلزل وتخرج أثقالها، وإنما تتحدث. والكلمة مدهشة في بنائها اللوحي: لهذه الأرض أخبار، وما جرى فوقها لم يكن حوادث متناثرة ذابت في الماضي، بل أخباراً محفوظة في سجل لا يضيع. كل موضع مشى فيه الإنسان، وكل مكان أطاع الله فيه أو عصاه، وكل بقعة أخفى فيها خيراً أو شراً، داخلٌ في ذاكرة الشهادة، حتى إذا جاء يوم الإذن تحدث المكان بما حمل.

والخبر ليس مجرد أثر جامد، بل حقيقة تُروى وتُظهر ما وقع. لقد كنا نظن أن الأخبار يرويها البشر عن الأماكن، فإذا السورة تقلب العلاقة: الأماكن نفسها ستروي أخبار البشر. في الدنيا يقول الإنسان: حدث في هذا المكان كذا وكذا؛ أما في الآخرة فالمكان يقول: فعل هذا الإنسان فوق كذا وكذا. يتحول المسرح إلى شاهد، والصامت إلى متكلم، وما كان محيطاً بالفعل يصبح دليلاً عليه. وحين يأذن الله للأرض أن تتحدث، تسقط المسافة بين الحدث وشهادته، فلا يستطيع الفاعل أن يطعن في ذاكرتها، أو يشتري صمتها، أو يهددها، أو يلقيها رواية بديلة.

كم من إنسان حرص على أن يرتكب خطيئته في مكان خالٍ لا تراه فيه عين، وظن أن غياب البشر يعني غياب الشهود؛ أغلق الباب، وأطفأ الضوء، وابتعد عن الرقابة، ثم فعل ما فعل وهو مطمئن إلى أن المكان محايد. لكن المكان لم يكن خالياً من علم الله، ولم يكن صمته موتاً لذاكرته؛ فالأرض التي وقع عليها الفعل ستخبر، والجوارح التي باشرته ستشهد، والكتاب الذي أحصى العمل سينطق، والله من وراء ذلك كله محيط لا

تخفى عليه خافية. لم تكن الشهادة لتضيف إلى علم الله شيئاً؛ فهو يعلم قبل أن يقع الفعل وبعد وقوعه، لكنها تقيم الحجة على الإنسان من كل جهة، حتى لا يبقى لإنكاره موضع، ولا لتأويله منفذ، ولا لكذبه ظل يختبئ فيه.

وفي مقابل الرهبة، ما أعظم ما تحمله الآية من أنسٍ للمحسنين الذين عملوا خيراً لم يره الناس. إن الأرض لا تحفظ أخبار الخطايا وحدها، بل تحفظ أخبار الطاعات أيضاً؛ تحفظ سجدة وقعت في ظلمة الليل، وخطوة مشت إلى صلاة، ويداً امتدت سراً إلى محتاج، وجلوساً في مكان قيلت فيه كلمة حق، ووقفه حمى فيها إنسان مظلوماً، ودمعة سقطت خشيةً أو رحمةً أو ندماً. وما دام المكان شاهداً، فلن يبقى الخير المجهول مجهولاً إلى الأبد، ولن تذهب الأيام التي عاشها الصادق وحيداً بلا رواية، ولن يضيع تعب من لم يجد في الدنيا من يقدره؛ فالأرض التي احتملت خطاه ستخبر عنها أمام من لا يضيع عنده عمل عامل.

ربما دخل مؤمن مسجداً خالياً، وصلى ركعتين لا يعلم بهما أحد، ثم خرج ونسيهما بين زحام العمر؛ لكن البقعة لم تنس. وربما مرَّ إنسان بطريق فرأى أذى فأماطه دون أن يلتفت إليه أحد، ثم مضى كأن شيئاً لم يكن؛ غير أن الطريق يملك خبراً سيأتي يوم روايته. وربما وقف رجل في أرض قاحلة فذكر الله، ولم يسمع ذكره بشر، لكن الأرض التي سمعته ستتكلّم. وربما دفن مظلوم دموعه في زاوية لا يراه فيها الناس، فأصبحت تلك الزاوية وعاء لقصة ستروى في ساحة العدل. وهكذا يتبدل معنى الوحدة: ليس المخلص وحيداً حين يغيب عنه الخلق، فالله معه بعلمه، والملائكة تكتب، والأرض تحفظ، والآخرة آتية ترد إلى كل لحظة قيمتها.

ولهذا كان في معنى الآية تربيةً على إعمار الأماكن بالطاعات؛ فالإنسان لا يعبر المكان بلا أثر، وإنما يترك فيه خبراً يأخذ منه شهادة. البيت له أخبار أهله: ما أقاموه فيه من

صلاة وذكر ورحمة، وما أودعوه جدرانهم من خصومات وظلم وقسوة. الطريق له أخبار المارين: من مشى إلى نجدة، ومن سعى في أذى، ومن حمل خبزاً إلى جائع، ومن ذهب بلسانه ليوقع بين قلبين. المكتب والسوق والمدرسة والمسجد والسجن وساحة الحرب؛ لكل مكان أخباره التي ستظهر حين تنتهي سلطة البشر على الرواية ويبدأ المكان في رواية ما رأى.

وإذا استقر هذا المعنى في الضمير، لم يعد السؤال: هل يراني الناس؟ بل: ماذا سيروي هذا المكان عني؟ ولم يعد الإنسان يختار سيرته وفق العيون الحاضرة، بل وفق العرض الآتي؛ فيستحي من الله في الخلوة كما يستحي أمام الخلق، بل أشد، ويحرص أن يترك في بقاع الأرض شهوداً لا له عليه. فما أجمل أن يتوزع خير الإنسان في أماكن كثيرة، حتى إذا تحدثت الأرض قامت له من طرقها وبيوتها ومساجدها ومجالسها شهادات نور، وما أفزع أن تتحول الأمكنة التي احتفى بها العاصي من نظر الناس إلى السنة لا تكتم عنه شيئاً.

إن المكان في التصور القرآني ليس فراغاً هندسياً تقع فيه الحياة ثم تمضي، بل جزء من النظام الأخلاقي للوجود. وقد جعل الله بعض الأمكنة مباركة، وبعضها مواضع لعبادته، ونهى عن الفساد في الأرض، وأمر بالسير فيها والنظر في مصائر السابقين؛ لأن للأرض علاقةً بمعنى الاستخلاف والشهادة والمآل. والإنسان خلق منها، ويعيش عليها، ويدفن فيها، ويخرج منها مرة أخرى، ثم يسمعها تتحدث بأخباره؛ فكان سيرته كلها محاطة بالأرض من بدايتها إلى بعثها: منها مادته الأولى، وفوقها ميدان امتحانه، وفيها مستودع جسده، ومنها بعثه، وعلى لسانها جانب من شهادته.

ويجيء التعبير ﴿أَخْبَارَهَا﴾ جامعاً، فهي أخبار الأرض بما وقع عليها، لا خبر واحد ولا واقعة منتقاة. في الدنيا تُصنع الروايات البشرية بالاختيار والحذف، فيبرز أصحاب النفوذ

ما يريدون، ويخفون ما يشاؤون، وقد يكتب المنتصر تاريخه بحيث يبدو الظالم بطلاً والمظلوم مذنباً، وتضيع بين الدعاية والحذف حقائق أمم وأفراد. أما أخبار الأرض يومئذ فلا تخضع لحرر، ولا تمر عبر رقابة سلطة، ولا يعاد تشكيلها بحسب مصلحة المنتصرين؛ إنها تخرج كما وقعت، في حضرة الملك الحق الذي لا يرضى بتخريف خبر ولا كتمان شهادة.

كم من تاريخ كتبه السيف وأراد لأصحابه أن يظهروا فيه أنقياء، بينما ابتلعت الأرض تحتهم دماء الضحايا؛ فإذا تحدثت الأرض سقطت بلاغة الكاذبين، وخرج الخبر من موضع الجريمة نفسه. وكم من صالح شوّهت سيرته، ثم مات ولم يتمكن من الدفاع عن نفسه؛ فإذا الأرض تحفظ له ما محتته كتب البشر. إن الآية تسحب احتكار الرواية من أيدي الأقوياء، وتعد يوم نتكلم فيه الحقيقة من تحت أقدامهم، فلا يبقى التاريخ ما كتبه الغالبون وحدهم، بل يصبح ما شهدته الوجود وأحصاه الله.

ثم يكشف القرآن سرّ هذا التحول المدهش: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾. إنها تتحدث لأن ربك أوحى لها؛ فليس نطقها استقلالاً، ولا خروجاً عن طبيعتها بقدرة ذاتية، وإنما امتثال لأمر الله. والوحي هنا إعلام وإذن وأمر يلائم الموحى إليه؛ فالله الذي أوحى إلى السماوات أمرها، وأوحى إلى النحل هدايتها، قادرٌ على أن يوحي إلى الأرض بما يشاء، فتفهم من أمره ما أراد، وتؤدي من وظيفتها ما كلفها به. إن اختلاف المخلوقات لا يحد سلطان الخطاب الإلهي؛ فكل مخلوق طريقته في تلقي أمر ربه، والإنسان ليس مقياساً لقدرة الله ولا لحدود الوجود.

﴿رَبِّكَ﴾؛ وما ألطف هذه الإضافة في قلب المشهد المزلزل. لم يقل: بأن الله أوحى لها فحسب، مع جلال الاسم، بل أضاف الرب إلى خطاب النبي ﷺ: ربك؛ تأنيساً له وثبتيّاً، وإيحاءً بأن الذي يدبر هذه الأحوال هو الرب الذي رعاه ورباه وحفظه وأنزل

عليه الوحي. فالقيامة ليست انفلاتاً كونياً أعمى، بل حدثٌ تحت سلطان الرب وتديره؛ الأرض لا تهتز اعتباراً، ولا تخرج أثقالها فوضى، ولا تتكلم بلا أمر، وإنما تجري المشاهد كلها وفق حكمة محكمة وعدالة كاملة. ولهذا فإن قلب المؤمن، مع خوفه من الموقف، لا يرى وراءه عبثاً، بل يرى رباً حكيمًا يعيد الأشياء إلى نصابها، وينطق الشهود، ويستخرج الحقوق، ويكشف المستور.

وفي كلمة ﴿أَوْحَى﴾ سرعة وخفاءً ونفاذ؛ يأمرها ربها فتستجيب من غير تردد، وتعرف ما تقول من غير تدريب، وتؤدي الشهادة من غير نقص. هنا تظهر المفارقة المؤلمة بين الأرض والإنسان: الأرض التي لم تُمنح عقل التكليف تستجيب فوراً لأمر ربها، بينما الإنسان الذي أُعطي العقل والسمع والبصر والوحي قد يسمع أمر الله سنين ثم يماطل، ويعرف الحق ثم يفاوض عليه، ويُذكّر بالتوبة ثم يؤجلها. فإذا كان الجهاد ينتظر أمر الله ليؤديه كاملاً، فبأي عذر يتناقل الإنسان عن أمر خُلق من أجله، وأُعطي من الأدوات ما يعينه عليه؟

إن الأرض لا تختار نص شهادتها، بل تتلقى من ربها ما تنطق به؛ ومن هنا تكون شهادتها منزهةً عن الهوى. أما الإنسان في الدنيا فيملك أن يلوّن الأخبار، وأن ينتقي من الوقائع ما يخدم صورته، وأن يروي عن نفسه ما يحب أن يكون لا ما كان بالفعل؛ لكنه في الآخرة يقف أمام رواية لا يملك تحريرها. سيعرف عندئذ أن أخطأ ما في الحقيقة ليس أنها موجودة، بل أنها ستُقال كاملةً في الوقت الذي تنتهي فيه قدرته على التعديل.

ومع ذلك، فإن باب التعديل مفتوح اليوم؛ لا بتزوير الخبر، بل بتغيير العمل، ولا بإسكات الأرض، بل بإدائها أخباراً جديدة تحوّل التوبة وتغلبها الحسنات. إن من رحمة الله أن أخبرنا بشهادة الأرض قبل أن تشهد، وأن كشف لنا مشهد المحكمة ونحن

ما نزال في ميدان العمل، وأن جعل كل لحظة مقبلة فرصة لنكتب على الأرض خبراً يسرنا أن نسمعه منها يوم القيامة. ما دام الإنسان حياً، يستطيع أن يعود إلى المكان الذي عصى فيه فيطيعه الله فيه، وأن يبدل مجلس الغيبة بمجلس ذكر، وطريق الأذى بطريق إحسان، وموضع القسوة بموضع رحمة؛ حتى نتعدد أخبار المكان، ويكون آخر عهده به توبة صادقة وخيراً جميلاً.

فأي كرامة أعظم من أن يجعل المؤمن الأرض شاهدة له بسجوده؟ وأي فطنة أعمق من أن يكثر المرء من بقاع الطاعة، كأنه يوزع شهود نجاته في العالم؟ وأي خسارة أفدح من أن يعيش الإنسان بين جدران تحفظ قسوته، وطرقات تحفظ ظله، ومجالس تحفظ كذبه، ثم يرحل تاركاً وراءه شبكة واسعة من الشهادات التي تنتظر الإذن بالكلام؟

لقد سأل الإنسان: ﴿مَا لَهَا﴾، فجاء الجواب أوسع من سؤال الحركة: إن الأرض لا تضطرب فقط، بل تستعد للكلام؛ ولا تُخرج أجساد البشر فحسب، بل تُخرج تاريخهم معها. كأن الزلزلة تهز غطاء الصمت عن العالم، فينطق كل ما حسبه الإنسان أبكم، ويظهر كل ما توهمه منسياً. وعندها يدرك أن حياته لم تكن سرّاً بينه وبين نفسه، بل نصّاً مفتوحاً في ذاكرة الكون، وأن الأرض التي حملته بصمت لم تكن غافلة عنه، وإنما كانت تنتظر أمر ربها لتقول: هنا مرّ، وهنا اختار، وهنا أحسن، وهنا أساء، وهنا كان ما صار اليوم مصيره.

الفصل الثالث

أشتاتاً إلى ساحة العرض: حين يرى الإنسان حياته خارج نفسه

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾

بعد أن تتزلزل الأرض، وتخرج أثقالها، ويتساءل الإنسان عن أمرها، ثم تحدث بأخبارها بإذن ربها؛ ينتقل المشهد من المكان إلى البشر، ومن شهادة الأرض إلى مصير الذين عاشوا فوقها: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾. وتكرر كلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لتشد كل صورة إلى ذلك اليوم، وكأنها دقائق متتابعة توقف القلب: يومئذ تحدث الأرض، ويومئذ يصدر الناس، ويومئذ تنتهي المهلة، ويومئذ يتحول الخبر الذي سمعوه في الدنيا إلى عالم يدخلونه بأجسادهم وأرواحهم، فلا يبقى بينهم وبين الحقيقة حاجز من غفلة أو إنكار.

و«الصدر» رجوع وانصراف بعد ورود؛ ومنه صدور الناس عن موارد الماء بعدما يأتون إليها مجتمعين، فيرجع كل منهم إلى وجهته وقد أخذ نصيبه. وفي الكلمة حركة تناسب المشهد: جموع بشرية لا يحصيها إلا الله، جاءت إلى مقام العرض والحساب، ثم تصدر عنه متفرقةً بحسب أحوالها ومصائرهما. لقد اجتمع الناس على أرض واحدة، وفي لحظة واحدة، أمام رب واحد، لكنهم لا ينتهون إلى مصير واحد؛ لأن اجتماع الأجساد في ساحة القيامة لا يلغي اختلاف القلوب والأعمال، بل يكشفه في صورته النهائية.

كانوا في الدنيا يختلطون في المدن والأسواق والطرق، ويتجاور المؤمن والفاجر، والصادق والكاذب، والرحيم والقاسي، حتى تبدو الفروق بينهم أحياناً غائبة تحت تشابه المظهر والحياة اليومية. وربما لبس المفسد ثوب المصلح، وتوارى الظالم خلف هيبة

السلطان، وعاش المخلص مجهولاً لا يلتفت إليه أحد، واختلطت الصور حتى عجزت العيون عن التمييز. أما في ذلك اليوم فإن الفرز لا يكون بحسب الثياب أو الأنساب أو الشعارات، بل بحسب ما استقر في القلوب وصدّقه الأعمال؛ يسقط التشابه الخارجي، ويظهر التفاوت الحقيقي، ويصدر الناس أشتاتاً.

﴿أَشْتَاتًا﴾: جماعات متفرقة، وأصنافاً متميزة، وطرائق شتى؛ هؤلاء إلى نعيم، وأولئك إلى جحيم، هؤلاء وجوههم مضيئة بالرجاء، وأولئك يعلوهم ذل الانكشاف، هؤلاء تقودهم أعمالهم الصالحة إلى رضوان الله، وأولئك تسوقهم أوزارهم إلى ما كانوا يكذبون به. إن التفرق يومئذ ليس فوضى، بل عدالة في غاية الدقة؛ فكل إنسان يوضع في الموضع الذي يناسب حقيقته، وكل روح تُلحق بما أحبت واختارت، وكل طريق دينوي ينتهي بصاحبه إلى غايته التي كان يمشي نحوها، وإن لم يكن يشعر.

وما أعمق المفارقة بين شتات الدنيا وشتات الآخرة؛ فقد يتفرق الناس في الدنيا بسبب المال والعصبية والحدود والألوان، وقد يجتمع أهل الباطل تحت راية واحدة وتدفعهم مصلحة واحدة، وقد يجد الصالح نفسه بعيداً عن الصالحين قريباً في المكان من قوم لا يشبهونه. أما شتات الآخرة فليس من صناعة الجغرافيا ولا السياسة ولا المصالح، بل من صناعة الأعمال. هناك تنحل الروابط التي لم تقم على الحق، وتلتئم الأرواح التي جمعها الإيمان وإن باعدت بينها القرون والبلدان؛ فيلحق الصادق بالصادقين، والشهيد بالشهداء، والرحيم بأهل الرحمة، كما يلحق الظالم بالظالمين والمتكبر بالمتكبرين.

لقد عاش البشر في الدنيا مشغولين بسؤال: إلى أي جماعة أنتي؟ ومن قومي؟ ومن أصحابي؟ وما الموقع الذي يمنحني الاعتراف؟ غير أن السؤال الذي ستكشف عنه القيامة هو: إلى أي صنف ألحقني عملي؟ فقد يحمل الإنسان اسم جماعة صالحة ولا يكون من أهل صلاحها، وقد ينتسب إلى تاريخ مجيد ولا يحمل من مجده شيئاً، وقد يكثر حديثه

عن الحق بينما تقوده أفعاله إلى صفوف الباطل. إن الأسماء تجمع الناس مؤقتاً، أما الحقائق فتفرزهم نهائياً؛ والله لا ينظر إلى اللافتة التي وقف الإنسان تحتها، بل إلى الطريق الذي سلكه والقيمة التي جسدها والنية التي حملها.

ولذلك فإن ﴿أَشْتَاتًا﴾ تهدم وهم النجاة الجماعية التي لا تقوم على مسؤولية الفرد؛ فلا القبيلة تحمل أوزار أبنائها، ولا الحزب يمنح أتباعه حصانة، ولا الجمهور يبذل حكم الله، ولا كثرة السالكين في طريق تجعل الباطل حقاً. قد يشعر الفرد في الدنيا بالأمان لأنه يذوب في الحشد، فيفعل ما يفعله الناس، ويكرر ما يقولونه، ويتخفف من وخز ضميره بحجة أن الجميع يفعلون ذلك؛ لكن الحشد الذي منحه وهم البراءة سيتفكك، ويقف كل إنسان أمام عمله، لا يحمله عنه الذين أغروه به ولا الذين صفقوا له حين فعله.

وفي الوقت نفسه، لا تلغي الآية أثر الصحبة؛ فالناس يصدرون أصنافاً بحسب أعمالهم، والعمل كثيراً ما تصنعه البيئة والرفقة والقودة. إن صاحب الذي يقربك من الخير يسهم في تشكيل الصنف الذي ستصدر معه، والذي يهون عليك المعصية يمد لك طريقاً إلى شتات لا تريد أن تكون فيه. فالصحبة ليست مجلساً عابراً، بل تدريب بطيء على المصير، والحب ليس عاطفة محايدة دائماً، بل قوة تلحق القلب بما يحب؛ ومن أحب الصادقين صدقاً تمنى أن يعيش قيمهم، ومن أحب أهل الباطل لأجل باطلهم أخذت روحه تنسبه بهم، حتى يأتي اليوم الذي تنكشف فيه طبيعة الانتماء.

ثم تبين الآية غاية هذا الصدور: ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ﴾. وهذه من أكثر العبارات القرآنية إيقاظاً للضمير، فالإنسان لن يُخبر بعمله خبراً مجرداً فحسب، بل سيراه. ستغادر الأعمال منطقة الغيب التي توارت فيها بعد انقضاء لحظاتها، وتظهر أمام صاحبها حقائق قائمة ذات آثار ونتائج؛ فيرى ما صنع، ويرى وزنه، ويرى ما تولد عنه، ويرى وجهه الأخروي بعد أن كان في الدنيا لا يرى إلا صورته العاجلة.

إن الفعل حين يقع يبدو لحظة قصيرة: كلمة تمر في ثوانٍ، ونظرة تنقضي في لحظة، وقرار يُوقع بقلم، وصدقة تنتقل من يد إلى يد، وصفح يحدث في القلب، وإشاعة يرسلها صاحبها بضغطة واحدة؛ ثم تمضي الساعة ويحسب الإنسان أن الفعل مضى معها. لكن القرآن يكشف أن الزمن يمر والعمل يبقى، وأن اللحظة تنتهي ولا ينتهي معناها، وأن الفعل لا يفنى بعد وقوعه بل ينتقل من عالم المشاهدة إلى سجل الحفظ، حتى يجيء موعد ظهوره. نحن لا نرى أعمالنا الآن كاملة؛ نرى فعلنا ولا نرى امتداداته، ونرى البذرة ولا نشهد الغابة التي قد تنشأ منها، ونسمع الكلمة عند خروجها ولا نسمع أصداءها وهي تعبر القلوب والأجيال.

قد يقول الإنسان كلمةً طيبة في لحظة صدق، فتقيم قلباً كان يوشك أن يسقط، ثم ينقلها السامع إلى غيره، وتظل دوائرها تتسع بعد موت قائلها؛ وصاحبها لا يدري في الدنيا أي نور بدأ من فمه. وقد يلقي كلمةً خبيثة في مجلس عابر، فتجرح روحاً، وتفسد علاقة، وتفتح باب فتنة، ثم تناسل آثارها حتى يصبح الذنب أكبر كثيراً من اللحظة الأولى. يوم القيامة لا يرى الإنسان الفعل في حجمه الظاهر فقط، بل يرى شجرته كلها: جذره، وأغصانه، وثمراته، ومن استظل به، ومن تسمم بثمره.

وهنا نتكشف مسؤولية التأثير؛ فالعمل ليس ما باشرته اليد وحدها، بل ما سنَّه الإنسان، وما أعان عليه، وما دعا إليه، وما رضي به، وما تركه من أثر بعده. قد يغيب الجسد عن الدنيا بينما تظل آثاره تعمل: كتاب يهدي، أو فكرة تضل، أو تربية صالحة تستمر في الأبناء، أو ظلم تحول إلى نظام تتوارثه الأجيال، أو باب خير فُتح فلم يغلق، أو خصومة أشعلت فظلت النار تسري فيها. وحين يُرى العمل، يُرى ممتداً في كل ما أنجبه من نتائج؛ فيفرح المحسن بحسنات لم يكن يعرف أن أثره بلغها، ويفزع المسيء من سيئات حسب أنها انتهت بانتهاء مجلسها الأول.

﴿لِيرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾؛ لم يقل: ليروا أموالهم، ولا مناصبهم، ولا بيوتهم، ولا الصور التي صنعها الناس عنهم؛ لأن كل تلك الأشياء كانت أدوات ومحيطاً لامتحان، أما الذي عبر معهم إلى الآخرة فهو العمل. المال بقي، لكن طريقة اكتسابه وإنفاقه صارت عملاً. المنصب زال، لكن العدل أو الظلم الذي مورس من خلاله بقي عملاً. الجسد عاد إلى التراب، لكن ما فعله بقوته بقي عملاً. اللسان سكن، لكن الكلمات التي أطلقها بقيت عملاً. كل ما كان يملكه الإنسان ينفصل عنه، وكل ما عمله يلتحق به.

وهذا يعيد ترتيب فكرة الملكية من جذورها؛ فما نملكه في الحقيقة ليس ما قبضت عليه أيدينا وقتاً، بل ما قدمناه لله فوجدناه باقياً. الثروة التي يجمعها المرء ثم يتركها ليست ملكه النهائي، وإنما الذي له منها ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو قدّم فأبقى. والعمر الذي يُقاس بعدد السنين لا تكون قيمته فيما مر منه، بل فيما امتلأ به من عمل. قد يعيش إنسان عمراً طويلاً ثم يراه يوم القيامة فراغاً واسعاً، ويعيش آخر زمناً أقصر لكنه يراه نوراً متراكماً؛ لأن الحياة لا تُوزن بامتدادها الزمني وحده، بل بكثافة المعنى الذي وضعه صاحبها فيها.

وفي قوله تعالى: ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ إضافة تكشف الملازمة: هذه أعمالهم هم؛ لا يستطيع الواحد أن يتبرأ منها، لأنها خرجت من إرادته واختياره، وصارت جزءاً من سيرته التي لا تنفصل عنه. في الدنيا قد يقول: كانت الظروف، أو كان المجتمع، أو أمرني فلان، أو اندفعت مع الجماعة؛ وقد تكون للظروف والضغوط آثار يعلمها الله ويزنها بعدله، لكن الإنسان يظل مسؤولاً في حدود ما منحه الله من قدرة واختيار. العمل الذي تبناه ونواه ورضيه هو عمله، وإن شاركه فيه آلاف؛ ولن يتحول الباطل إلى عملٍ بلا صاحب لمجرد أن أيدي كثيرة اشتركت في صنعه.

ورؤية العمل أبلغ في الحجة من مجرد قراءة اسمه؛ لأنها تقطع طريق التهوين. فالإنسان بارع في تغيير أسماء أفعاله: يسمي البخل حرصاً، والجبن حكمة، والمداهنة مصلحة، والتعصب وفاء، والغيبة نقداً، والظلم حزمًا، والتكبر حفاظًا على الهيبة. وربما أقنع نفسه بالتسمية حتى غابت عنه حقيقة الفعل؛ لكن حين يُرى العمل مجرداً من زخرف العبارة، تسقط اللغة التي استُعملت للتبريره، ويظهر كما هو في ميزان الله. هناك لا تنفع البلاغة التي جمّلت القبيح، لأن الحقيقة نفسها حاضرة.

وكما تكون رؤية السيئة حسرة، تكون رؤية الحسنة نعيمًا يبدأ قبل دخول النعيم؛ فما أبهج أن يرى الإنسان صبره الذي ظنه مجرد ألم وقد تحول إلى أجر، وأن يرى دموعه التي أخفاها وقد صارت نوراً، وأن يرى عفوه الذي كلفه كسر غضبه وقد صار رفعة، وأن يرى المال الذي نقص من يده بالصدقة وقد عاد إليه باقياً مضاعفاً. إن الله لا يكتفي بأن يجازي المحسن، بل يريه قيمة ما فعل، حتى يعرف أن لحظة المشقة لم تضيع، وأن مقاومته لهواه لم تكن حرماناً، وأن الخير الذي استصغره الناس كان في علم الله عظيماً.

وربما كانت بعض الأعمال صالحة في ظاهرها، لكن صاحبها يراها يومئذ خاويةً لأن النية أفسدتها؛ صلى لتراه العيون، وكتب ليقال عنه، وتصدق ليُذكر اسمه، ودافع عن الحق ما دام الحق يخدم مكاتته. كان العمل كبيراً في المشهد الاجتماعي، صغيراً أو ساقطاً في ميزان الإخلاص. وفي المقابل، قد يرى آخر عملاً لم يلتفت إليه الناس، لكنه تضخم لأن قلبه كان صادقاً، ولأنه قاوم به شهوة قوية، أو فعله في وقت عرّ فيه الفاعلون. ليست قيمة العمل في صوته الخارجي وحده، بل في حقيقة القلب التي قام منها، والظرف الذي وُلد فيه، والأثر الذي تركه، وموافقته لما يحب الله ويرضى.

إن هذه الآية لا تربي الإنسان على عبادة الإنجاز ولا على مراقبة صحيفه أعماله بعجب، بل على الإخلاص والمحاسبة. فالمؤمن يعمل ويرجو القبول، ويعلم أن النجاة برحمة الله، وأن عمله مهما بلغ لا يستقل بثمن الجنة، لكنه في الوقت نفسه لا يحتقر التكليف ولا يفرط في الأسباب التي أمره ربه بها. هو لا يتكل على العمل اتكال المستغني عن الرحمة، ولا يترك العمل بدعوى اتكاله على الرحمة؛ بل يعمل افتقاراً، ويستغفر بعد الطاعة، ويرجو أن يتقبل الله القليل ويبارك فيه.

ولأن الناس سيرون أعمالهم غداً، فإن الحكمة أن يحاول الإنسان رؤيتها اليوم قبل أن تعرض عليه هناك؛ أن يقف عند آخر النهار ويسأل نفسه: ماذا كتبت في هذا اليوم؟ من جرحت؟ من جبرت؟ أين أطعت؟ وأين انسقت وراء هواي؟ ماذا لو تحولت ساعاتي الماضية الآن إلى مشهد أراه أمامي؟ أي لحظة أتمنى بقاءها، وأيها أتمنى لو محوتها؟ هذه المحاسبة ليست تعذيباً للذات، بل رحمة بها؛ لأنها رؤية أولى يمكن بعدها الإصلاح، أما الرؤية الأخيرة فهي كشف لا يعقبه استدرارك.

وما دام باب التوبة مفتوحاً، فإن عرض العمل في القرآن قبل عرضه في الآخرة نعمة كبرى؛ فالخبر بالغيب يمنح الإنسان فرصة أن يغير ما سيراه. قد كتب بالأمس ذنباً، لكنه يستطيع اليوم أن يكتب توبة تحوه؛ وقد ترك أثراً سيئاً، لكنه يستطيع أن يصلحه ويعتذر ويرد الحق؛ وقد عاش شطراً من عمره في الغفلة، لكنه لا يزال قادراً أن يجعل الشطر الباقي عودة صادقة إلى الله. ليس المطلوب أن يمتلك ماضياً بلا خطايا، فهذا مقام لا يبلغه البشر، وإنما أن يمتلك قلباً لا يصير على الخطيئة، وأن يعرف كيف يعود كلما أبعدته نفسه.

وتوحي الآية بأن مسيرة الإنسان كلها رحلة إلى رؤية ما صنع؛ فما فعله اليوم سيرتد إلينا غداً، وما نرسله إلى مستقبلنا الأخرى ينتظر وصولنا. نحن لا نغادر أعمالنا حين

نكلمها، بل نتقدم نحو موعد لقاءها. من يزرع الخير يمشي، وإن طال الطريق، إلى حقل زرعه؛ ومن يبذر الشر يمضي، وإن نسي البذور، إلى موسم حصاده. وبين الفعل والرؤية قد تمر سنون أو قرون، لكن المسافة الزمنية لا تلغي الصلة، كما أن طول الشتاء لا يبطل حقيقة الربيع.

وهكذا تقف الآية بالإنسان أمام سيرته لا أمام سير الآخرين. لقد أهدر كثير من الناس أعمارهم في عدِّ أخطاء خصومهم، وتفتيش ضمائر غيرهم، ومراقبة ما قدم فلان وما أخر، بينما صحائفهم هم تمتلئ في صمت. يومئذ يرى كل إنسان عمله؛ فلا تنجيه معرفة عيوب الناس من رؤية عيبه، ولا يعوضه انشغاله بفضائح الآخرين عن إصلاح سريره. إن أصدق معرفة يحتاج إليها المرء ليست أن يعرف كل ما يجري حوله، بل أن يعرف إلى أين تمضي به أعماله.

سيصدر الناس أشتاتاً، لكنهم يشتركون في حقيقة واحدة: أن كلاً منهم سيواجه ما قدّم. لا أحد يخرج من الدنيا خالي اليدين؛ حتى الفراغ عمل، والإعراض اختيار، والصمت قد يكون موقفاً، والامتناع قد يكون طاعة أو خذلاً. كل يوم يمر يضيف شيئاً إلى المشهد الذي سنراه، وكل لحظة تشارك في تشكيل الجماعة التي سنصدر معها. وبينما تنوهم أننا نصنع أفعالاً منفصلة، فإننا في الحقيقة نصنع بها صورتنا الأخيرة، ونحدد بها وجهة الصدور بعد انفضاض الجمع.

إن السؤال الذي تضعه الآية في قلب الإنسان ليس: ماذا أريد أن يراني الناس؟ بل: ماذا أريد أن أرى يوم يريني الله عملي؟ وبين الصورتين مسافة قد تساوي المصير كله؛ فقد ينجح الإنسان في صناعة صورة باهرة أمام البشر، ثم يرى وراءها خواء مرعباً، وقد يعيش عبداً صالحاً مغموراً لا يعرف الناس قدره، ثم يرى من عمله عالماً من النور لم يخطر له على بال. هناك تنتهي سلطة المظهر، وتبدأ سيادة الحقيقة؛ ويقف الإنسان أمام عمره

متجسداً، فلا يجد حوله إلا ما قدّمت يداه، ولا يسمع في أعماقه إلا السؤال الذي كان
ينبغي أن يصاحبه منذ البداية: أيُّ عمل أستطيع أن ألقاه دون أن أخفض رأسي نجلاً
بين يدي الله؟

الفصل الرابع

مثقال الذرة من الخير: حين تستنقذ العدالة الإلهية الأعمال المنسية

﴿فَن يَمْعَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾

بعد المشاهد الكونية الهائلة التي بدأت بها السورة؛ زلزلة الأرض، وإخراج أثقالها، وحديثها بأخبارها، وصدور الناس أشتاتاً لرؤية أعمالهم، تضيق عدسة المشهد فجأة حتى تبلغ أصغر ما كان العرب يضربون به المثل في الدقة والخفة: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾. تبدأ السورة بالأرض كلها وتنتهي بالذرة؛ وكأنها تريد أن تقول إن قدرة الله التي تحيط بالمشهد الكوني الأعظم هي نفسها التي لا يفلت منها التفصيل الأخلاقي الأدق، وإن الذي يزلزل الأرض بأمره لا يضيع في علمه خاطر خير مر بالقلب، أو حركة رحمة امتدت بها اليد، أو كلمة صدق كادت تضيع في ضجيج العالم.

إن البشر حين ينظرون إلى الأشياء يبهتهم الكبير الظاهر، أما ميزان الله فلا تحجبه الضخامة عن الدقة ولا الدقة عن الضخامة؛ فهو سبحانه يعلم حركة الجبال وحركة الذرات، ويحصي مصائر الأمم وخفقات القلوب، ويرى المعركة الكبرى ويرى في أثنائها قطرة الماء التي سقاها جندي لجريح، ويعلم قيام الحضارات وسقوطها ويعلم الكلمة الطيبة التي قالها أب لابنه فثبتت في نفسه وصنعت مستقبلاً كاملاً. لا يختلط عليه شأن بشان، ولا يشغله صوت عن صوت، ولا يضيع العمل الصغير في زحام الأعمال الكبيرة؛ لأن علمه ليس علماً بشرياً ينتقي ويغفل، بل إحاطة كاملة لا يعزب عنها مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

وتبدأ الآية بأداة الشرط: ﴿فَن يَمْعَلْ﴾؛ فتفتح الحكم لكل إنسان، بلا استثناء يقوم على عرق أو طبقة أو نسب أو موقع. «مَنْ» هنا باب واسع يدخل منه جميع المكلفين؛ فلا

امتياز أمام العمل إلا بحقيقته، ولا يستطيع شريف النسب أن يطالب بثواب خير لم يفعله، ولا يمكن لضعيف المكانة أن يُحرم خيراً فعله لأن الناس لم يعرفوا اسمه. إن عدالة السماء لا تقيم وزن الإنسان على مقدار ما كان يشغل من مساحة في أعين الخلق، بل على حقيقة ما حمله قلبه وقدمته يداه.

وفي قوله تعالى: ﴿يَعْمَلْ﴾ مواجهةً لوهم الأمنيات؛ فالمعيار هو العمل، لا الصورة التي يتخيلها الإنسان عن نفسه، ولا العاطفة العابرة التي لم تتحول إلى موقف، ولا الادعاء الذي لم يصدقه سلوك. قد يجب المرء أن يكون كريماً، لكن الكرم يظهر حين يحتاج البذل إلى تضحية؛ وقد يرى نفسه رحيماً، لكن الرحمة تُختبر عند القدرة على العقوبة؛ وقد يكثر حديثه عن نصرة المظلوم، لكن صدق حديثه يظهر حين تكون للنصرة كلفة. ليست الآية إهداراً للنية، فالنية روح العمل وأساس قبوله، ولكن النية الصادقة تدفع بحسب الاستطاعة إلى أثر، وإذا عجز صاحبها كتب الله له من صدقه ما يعلم؛ أما الأمانى التي تستريح إلى صورة الخير ولا تنهض إليه فليست هي المقصودة بالعمل.

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ والمثقال هو الوزن، فكأن الأعمال وإن كانت معاني وأفعالاً مضت في الزمن، تصبح لها أوزان في ميزان الله. ليس الخير فكرةً سائبة ولا انفعالاً يذوب، بل حقيقة موزونة محفوظة. والذرة قبل هي النملة الصغيرة، وقبل ما يرى في شعاع الشمس من دقيق الهباء، والمقصود بلوغ الغاية في القلة والدقة؛ أي إن الخير مهما صغر حتى لم يكد يلفت صاحبه، فضلاً عن الناس، فإنه حاضر في الحساب، وله وزنه الذي لا يهمله ميزان العدل.

والتعبير لا يقول: فن يعمل عملاً عظيماً يره، فهذه حقيقة يتوقعها الناس، وإنما ينفذ إلى المنطقة التي يداخل الإنسان فيها اليأس من قيمة فعله: العمل الضئيل الذي لا يغير المشهد في ظنه، والإحسان الذي لا يسمع به أحد، والموقف الذي يبدو كقطرة في بحر

الاحتياج. هناك تأتي الآية لتمنحه يقيناً حاسماً: ليس عليك أن تجعل العمل كبيراً في أعين الناس، وإنما عليك أن تجعله خيراً في ميزان الله؛ فحجمه ليس وحده سر قيمته، وقد تكبر الذرة بالإخلاص، وبشدة الحاجة إليها، وبالوقت الذي قُدمت فيه، وبالشئ الذي منعته، وبالأثر الذي تولد منها.

ربما لا يملك الإنسان أن يطعم مدينةً جائعة، لكنه يملك أن يطعم جائعاً واحداً؛ ولا يستطيع أن يحو الحزن من العالم، لكنه يستطيع أن يخفف دمةً قريبة؛ ولا يقدر أن يصلح فساد أمة في يوم، لكنه يقدر أن يمتنع عن إضافة ذرة فساد جديدة؛ ولا يملك أن ينصر كل مظلوم، لكنه يستطيع ألا يكون عوناً لظالم. هذه الآية تحرر الإرادة من الشلل الذي تصنعه ضخامة المشكلات؛ فالتحير لا يشترط أن يبدأ من القدرة على تغيير كل شيء، بل من الصدق في تغيير ما تستطيع.

كم من إنسان ترك خيراً صغيراً لأنه لم يره جديراً بالفعل، فحرم نفسه من بذرة ربما باركها الله حتى صارت شجرة؛ وكم من إنسان أغراه طلب الأعمال الكبيرة فأهمل واجباته القريبة، فكان يتحدث عن إنقاذ البشرية ولا يحسن إلى من في بيته، ويحلم بإصلاح المجتمع ولا يكف أذاه عن جاره، ويريد أن يُذكر في ميادين البطولة ولا يمنح ضعيفاً كلمة احترام. إن ميزان الذرة يعيد الأخلاق من المنابر البعيدة إلى تفاصيل الحياة؛ لأن الصدق الكبير يُبنى من مواقف صغيرة تتكرر حتى تصبح طبعاً ومساراً.

فالابتسامة التي ترفع وحشةً خير، والكلمة التي تحفظ كرامة فقير خير، وإفساح الطريق لعاجز خير، وحمل المتاع عن كبير خير، وإماطة الأذى عن الطريق خير، وستر العيب الذي لا مصلحة في كشفه خير، وكف اللسان في لحظة غضب خير، والاعتذار الذي يرمم قلباً خير، والدعاء بظهور الغيب خير، والإصغاء لمهموم لا يجد من يسمعه خير. ليست هذه الأعمال هوامش في الدين، بل ملاحم لعبودية تسري في اليوم كله،

وتحوّل العادة إلى قربة، والعلاقة إلى أمانة، والحركة العابرة إلى ذرة باقية في صحيفة صاحبها.

ولا يعني تعظيم الذرة أن تساوى الأعمال كلها؛ فهناك فرائض عظيمة، ومقامات عالية، وتوضيحات لا يبلغها عمل يسير، وقد جعل الله لكل عمل قدره. لكن الآية تهدم احتقار الخير، لا الفروق بين مراتب الخير؛ وتقول للإنسان: لا تترك العظيم ما استطعت إليه سبيلاً، ولا تحتقر الصغير إذا فُتح لك بابه. فمن خداع النفس أن تتخذ انشغالها بالمشروعات الكبرى عذراً لتترك الواجب اليومي، أو أن تذر بعجزها عن الكمال لتترك الممكن؛ فالطريق الطويل لا يُقطع بالقفزة المتخيلة، بل بالخطوة الواقعة.

وفي الآية تربيةٌ على دوام الخير؛ لأن الذرات إذا اجتمعت صارت أثقالاً، والأعمال الصغيرة إذا تكررت صنعت السيرة. نقطة الماء لا تبدو نهراً، لكن النهر ليس إلا اجتماع قطرات، والكلمة الطيبة الواحدة قد لا تبدل نفساً كاملة، لكن نتاج الكلمات الرحيمة يصنع بيئةً تنمو فيها الأرواح بسلام. إن العادة الأخلاقية ليست قراراً واحداً ضخمًا، بل آلاف الاختيارات الدقيقة التي تتراكم في الخفاء؛ وفي كل مرة يختار الإنسان الصدق بدل الكذب، والعفو بدل التشفي، والعفة بدل الانسياق، فإنه يضيف ذرة إلى البناء الذي سيقف به بين يدي الله.

ولفظ ﴿خَيْرًا﴾ جاء تذكراً ليعم وجوه الخير كلها؛ كل ما كان مرضياً لله، نافعاً لعباده، موافقاً للحق، طاهراً في قصده وطريقته. فالحير ليس محصوراً في صورة واحدة، ولا في أعمال الشعائر وحدها مع جلالها ومركزيتها، بل يمتد من الصلاة والذكر وتلاوة القرآن إلى العدل في الحكم، والأمانة في العمل، والرفق في البيت، والصدق في التجارة، والإصلاح بين الناس، وإتقان المهنة، وحماية الضعيف، وصيانة المال العام، واحترام

كرامة الإنسان. الدين لا يريد من المرء لحظات منفصلة من التعبد فحسب، بل يريد أن تصير حياته كلها مجالاً لتكاثر فيه ذرات الخير.

وقد يعمل شخصان الفعل نفسه ويختلف وزن العملين اختلافاً بعيداً، لأن الله يرى ما وراء الصورة. قد يعطي الغني مالاً كثيراً لا يشعر بنقصه، ويعطي الفقير قليلاً اقتطعه من حاجة نفسه، فيكون للقليل من معنى التضحية ما ليس للكثير. وقد يقول إنسان كلمة الحق حيث الجميع يقولها فلا يتحمل مشقة، ويقولها آخر في وجه طغيان يهدد حياته، فلا تتساوى الكلمتان في وزن الابتلاء. وقد يصبر القوي عن شهوة ضعيفة، بينما يقاوم آخر اندفاعاً شديداً لا يعلمه أحد؛ فالله الذي يحصي الذرة يعلم كذلك عمق المجاهدة التي صنعتها.

ولذلك لا ينبغي للإنسان أن يحتقر عمل غيره لمجرد صغره صورته الظاهرة؛ فقد يرى صدقةً قليلةً فيزدريها، ولا يعرف أنها كل ما يملك صاحبها، ويرى عبادةً محدودة فلا يدري كم قاوم صاحبها من ألم كي يؤديها، ويرى كلمةً بسيطة لا يعلم أنها خرجت من قلبٍ بلغ من الإخلاص ما لم يبلغه كثير من الخطباء. إن الله وحده يملك الميزان الكامل؛ أما البشر فيرون القشرة، وقد تتدعهم الكثرة، ويجذبهم الظهور، ويغيب عنهم تاريخ القلب وراء الفعل.

﴿يَرَهُ﴾؛ هذه هي البشرى التي تحفظ للخير بقاءه. لم يقل فقط: يُجْزَ به، بل قال: يره؛ فيرى الإنسان عمله محفوظاً، ويرى أثره، ويرى كرامة الله له بسببه. والرؤية هنا تبطل انخوف الإنسان العمي من الضياع؛ فالناس يتألمون حين يبذلون ولا يُذكر بذلهم، أو يحسنون فيقابل إحسانهم بالجود، أو يخلصون فيُنسب فضلهم إلى غيرهم. تأتي الآية لتقول: قد لا يراك من أحسنت إليه، وقد ينسى الناس، وقد يطمس التاريخ اسمك، لكن الخير نفسه لن يضيع؛ ستره في اليوم الذي تكون أحوج ما تكون إلى رؤيته.

أيّ عزاء للمغمورين أعظم من هذا؟ الذين مروا بالحياة بلا أضواء، وربوا أبناءهم بصبر، وخدموا أهلهم في صمت، وأطعموا من القليل، وعاشوا أعواماً يقاومون الحرام، ثم ماتوا ولم تكتب عنهم سيرة ولم تُرفع لهم صورة؛ سيجدون أن السماء لم تعاملهم كهوامش، وأن كل ذرة خير صنعتها أرواحهم كانت محفوظة. الشجرة ليست دليل القبول، والخفاء ليس دليل الضياع؛ فقد يملأ العالم باسم إنسان وصحيفته عند الله فقيرة، وقد يجهل العالم عبداً وصحيفته عامرة بالنور.

إن البشر يذكرون الأحداث الكبيرة وينسون الأعمال الصغيرة التي جعلت الحياة ممكنة؛ يذكرون القائد وينسون من ضمد الجرح، ويمدحون صاحب المشروع وينسون من حمل تفاصيله اليومية، ويتحدثون عن النصر وينسون قلب أم صبر، ويداً أعدت الطعام، ورجلاً حرس في الليل، وفقيراً قدّم من قوته. أما الله فلا يكتب التاريخ بعين بشرية تنتقي الأسماء اللامعة؛ عنده لا تحتفي الجهود المجهولة خلف العناوين الكبرى، ولا يُنسب عمل عامل إلى غيره، ولا تضيع مساهمة صغيرة في ازدحام الجماعة.

والآية تربي الداعية والمصلح والمربي على التحرر من استعجال النتائج؛ فقد يبذل كلمة خير ولا يرى لها أثراً، ويزرع معنى في نفس ثم يفارقها قبل أن يشهد ثمره، ويقف في وجه فساد يبدو أكبر من قدرته، فيصبيه اليأس لأنه لم يشاهد التغيير. لكن ميزان التكليف لا يقوم فقط على النتيجة التي يراها العبد؛ عليه أن يصدق ويبذل وفق استطاعته، ثم يكل الثمر لله. قد تكون مهمته أن يضع ذرة الخير في موضعها، ويأتي إنسان بعده فيضيف إليها أخرى، حتى يكتمل البناء في زمن لا يبلغه؛ ولن يُحرم الأول أجر ما أسس.

كم من معلم قال لتلميذ كلمة ثقة ثم نسها، بينما حملها التلميذ أعواماً وكانت سبباً في نهوضه. وكم من كاتب وضع صاحبه فيه معنى صادقاً، ثم مضى من الدنيا قبل أن يصل

الكتاب إلى قارئ احتاج إليه، فتغير به مسار حياته. وكم من موقف أخلاقي رآه طفل في أبيه، فاستقر في أعماقه وصار بعد عقود مبدأً يحكم به أسرته وعمله. إن الآثار لا تستأذن أصحابها في الامتداد، ورب الذرة وحده يعلم إلى أين وصلت، ثم يريهم إياها يوم يجمع الحصاد كله.

وفي الآية ردٌّ على من يظن أن فساد العالم يبرر امتناعه عن الخير؛ فحتى لو ملأ الظلام الآفاق، تظل للشمعة قيمتها، لا لأنها تحول الليل كله إلى نهار، بل لأنها ترفض أن تكون جزءاً من الظلمة. والمؤمن لا يعمل الخير لأن الناس جميعاً سيفعلونه، وإنما يفعله لأنه خير يحبه الله، ولأن مسؤوليته لا تسقط بخيانة الآخرين لمسؤولياتهم. إذا شاع الكذب، ازدادت قيمة صدقه؛ وإذا انتشرت القسوة، صار للرحمة لمعان خاص؛ وإذا استعلى الفساد، غدا الامتناع عن المشاركة فيه شهادة أخلاقية لا تضيع.

ولا ينبغي أن تفهم الآية على أنها مجرد قانون آلي منفصل عن حقيقة الإيمان والقبول وسائر النصوص، بل تُقرأ في ضوء المنهج القرآني كله؛ فالأعمال مرتبطة بالإيمان والنية، والله يحكم بين عباده بالعدل والفضل، ولا يظلم أحداً شيئاً. لكن مقصد الآية المباشر يبقى نافذاً: لا احتقار لأي خير، ولا ضياع لشيء أحصاه الله، ولا عبث في العالم الأخلاقي. كل عمل له موضعه، وكل ذرة داخلية في الحساب، والله أعلم بحقائق عباده وأرحم بهم وأعدل.

والجميل أن الآية لا تحدد نوع الجزاء هنا، بل تجعل مركز التعبير في الرؤية: ﴿يُرَهُ﴾؛ كأن مجرد العثور على الخير في ذلك اليوم مفاجأة مبهجة. ينظر الإنسان إلى صحيفته فيجد ابتسامةً نسيها، وصدقةً خفيت عنه، وكلمةً قالها ثم ذهبت من ذاكرته، وصبراً على وجع حسبه زمناً ضائعاً، وامتناعاً عن ذنب لم يطلع عليه أحد، فيرى أن الله كان يحول دقائق

حياته المتعبة إلى كنوز مؤجلة. هناك يفهم أن الطريق لم يكن فارغاً، وأن كل مرة غلب فيها نفسه كانت إضافة إلى رصيده الأبدي.

فيا من لا يملك إلا قليلاً: لا تحتقر قليك إذا صدق. ويا من لا يستطيع حمل هموم العالم: احمل الهم الذي وضعه الله في طريقك. ويا من ظن أن أيامه العادية لا تصلح لصناعة المجد: إن مجد الآخرة قد يُبنى من تفاصيل لم يصفق لها أحد. ويا من فعل خيراً فجُحد: لا تطارد اعتراف الناس، فقد سُجل اعتراف الأرض والملائكة، والله من قبل ذلك كله شاهد. ويا من تأخرت ثماره: ازرع، فليس شرط البذرة أن ترى بنفسها اكتمال الشجرة.

إن أعظم ما تمنحه هذه الآية للقلب هو إنقاذه من اليأس ومن الغرور معاً؛ تنقذه من اليأس لأنها تؤكد أن الذرة لا تضع، وتنقذه من الغرور لأنها ترده من وهم الأعمال الضخمة إلى واجب الإخلاص في أصغر التفاصيل. فلا يتوقف عن الخير بحجة صغره، ولا يعجب بنفسه حين يكبر في أعين الناس؛ بل يعلم أن الله وحده يزن، وأن العمل الذي يبدو ذرة قد يثقله الصدق، والعمل الذي يبدو جبلاً قد تذرّوه آفة الرياء.

وبذلك يتحول اليوم العادي إلى ميدان زاخر بالفرص: دقائق يمكن أن تُملأ بالذكر، وطرقات يمكن أن تُعمر بالنفec، ووجوه يمكن أن تستقبل بالبشر، وأذى يمكن أن يُكف، وحقوق يمكن أن تُرد، وأخطاء يمكن أن تُصلح، ونيات يمكن أن تُطهر. لم يعد الخير مشروعاً مؤجلاً إلى زمن الوفرة والقوة؛ إنه متاح الآن، في الكلمة والنظرة والخطوة والاختيار. ومن عاش بقلب ينتبه إلى الذرات، جمع من أبوابها ما قد يفاجئه يوم يرى عمله.

إن العالم قد لا يعرف أسماء الذين حفظوه بذرات الخير، لكن الله يعرفهم؛ أولئك الذين يمنعون الشر من التمدد بكلمة، ويصلحون كسراً صغيراً، ويحرسون أمانة لا يراقبهم

فيها أحد، ويواصلون الإحسان مع قلة الشكر. هؤلاء لا تبدو أعمالهم دائماً في عناوين التاريخ، لكنها تظهر في ميزان الحقيقة؛ لأن القيامة ليست يوم عرض الأعمال الصالحة وحدها، بل يوم استنقاذ كل خير من النسيان، حتى لو كان مثقال ذرة.

وهكذا تهبط السورة من زلزلة الأرض إلى أدق حركة أخلاقية، لتقيم في النفس يقيناً لا يتزعزع: قد تسقط المدن، وتطوى القرون، وتُنسى الأسماء، ويضيع الثناء البشري، ولكن الخير لا يسقط ولا يُطوى ولا يُنسى. وكل ذرة أودعتها يد صادقة في تراب الحياة ستنهض يوماً أمام صاحبها وتقول له: لم أضع؛ لقد حفظني الله لك حتى بلغت الساعة التي كنت أحوج ما تكون فيها إليّ.

الفصل الخامس

مِثْقَالُ الذَّرَّةِ مِنَ الشَّرِّ: حِينَ تَسْقُطُ حَصُونُ التَّبَرُّرِ

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

تكتمل الموازنة القرآنية المحكمة بالوجه الآخر من الحقيقة؛ فكما لا يضيع الخير مهما دقَّ، لا يختفي الشر مهما صغر، وكما تحفظ العدالة الإلهية للمحسن ذرة إحسانه، فإنها لا تسمح للسيء أن يبدد ذرة إساءته في غبار النسيان. إن الميزان الذي يطمئن به الصالحون هو نفسه الميزان الذي يرتعد أمامه المصرون على الشر؛ لأن كمال العدل لا يتحقق بحفظ الحسنات وحدها، بل بإحصاء السيئات كذلك، ولا يكون إنصاف المظلوم كاملاً إذا أُثبت له صبره ثم أهمل الظلم الذي وقع عليه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾؛ يعود الإنسان مرة أخرى إلى مسؤوليته المباشرة، فلا حديث عن الشر بوصفه قوة غامضة لا صاحب لها، ولا عن الفساد باعتباره ظاهرةً مبهمّةً وُجدت وحدها، بل عن عاملٍ عمل، وإرادة اختارت، وقلب رضي، ويد امتدت، ولسان نطق. إن من أخطر حيل الشر أن يذيب الفاعل نفسه في صياغة مجهولة: حدث الظلم، وانتشر الفساد، وسُفك الدم، وضاعت الحقوق؛ كأن الأفعال وقعت بلا فاعلين، وكأن المأساة ولدت من فراغ. أما القرآن فيرد كل عمل إلى صاحبه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾، لأن تحويل الجرائم إلى ألفاظ مجردة قد يخفي المسؤولين عنها، لكن ميزان الله لا تختلط عليه اليد التي باشرت باليد التي قاومت، ولا اللسان الذي حرّض باللسان الذي أنكر، ولا القلب الذي أحب الشر بالقلب الذي تألم له.

والمعنى لا يقف عند الشر الكبير الذي ترتعد له النفوس، بل يبلغ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ وهذا هو الموضوع الذي تتكاثر فيه غفلة الإنسان، فهو قد يحذر الجريمة الهائلة لأنها تشوه

صورته أمام نفسه والناس، ثم يستخف بصغائر تكرر حتى تعيد تشكيل قلبه. يظن أن النظرة العابرة لا أثر لها، وأن الهمزة الخفية لا تُذكر، وأن كلمة السخرية تمر، وأن كسر الخطأ أمر بسيط، وأن التأخر عن أداء حق يسير لا يستحق الوقوف، وأن الكذبة الصغيرة ستذوب في زحام الكلام؛ فتأتي الآية لتسد باب الاستهانة: الذرة مرئية، والسر محسوب، والأثر محفوظ.

ليس الخطر في الذرة وحدها، بل في النفس التي تسمح لها بالدخول لأنها ذرة؛ فما يبدأ صغيراً قد يتكاثر بالتكرار، وما يرتكب مع شعور بالنجل قد يتحول مع الإصرار إلى عادة، ثم تصوير العادة طبعاً، ثم يدافع الإنسان عنها بوصفها جزءاً من شخصيته. لا يبدأ انهيار الضمير دائماً بجرمة ضخمة، بل بتنازل دقيق لا يكاد يُرى، ثم تنازل آخر يسنده، حتى تتسع الفجوة بين الإنسان وما كان يعرفه من الحق. وهكذا لا تكون صغائر الشر صغيرةً من جهة ما قد تفتحه من أبواب، وإن كانت متفاوتةً في ذاتها وأحكامها.

إن أول كذبة تُقلق القلب، فإذا تكررت خفَّ اضطرابه، ثم يعتاد اللسان تشكيل الواقع كما يشاء، حتى يصبح الصدق ثقباً عليه. وأول ظلم قد يحتاج من صاحبه إلى تبرير طويل، فإذا نتابعت المظالم صار يرى الاستقامة سذاجة، والرحمة ضعفاً، ورد الحقوق تهديداً لهيبته. وأول خيانة للأمانة تترك في النفس جرحاً، فإذا لم تعالجها التوبة تحولت الخيانة إلى مهارة يتفاخر بها صاحبها. الذرة ليست مجرد حجم، بل قد تكون بداية اتجاه؛ والاتجاه إذا استمر صار طريقاً، والطريق ينتهي إلى مصير.

ولهذا لا يُفهم التحذير من مثقال الذرة على أنه دعوة إلى وسواس يشل الإنسان أو يدفعه إلى القنوط؛ فالقرآن الذي يوقظ الخوف يفتح باب المغفرة، والله الذي يحصي الذرة أمر بالتوبة ووعده بقبولها، بل أخبر أن الحسنات يذهبن السيئات وأن التائب الصادق قد يبدل الله سيئاته حسنات. إن المقصود يقطة الضمير لا مرضه، ومحاسبة

النفس لا تعذيبها، والرجوع إلى الله لا اليأس منه. المؤمن لا يعيش مرعوباً من رب يترص بزلاته، بل مستحيماً من رب يرى تقصيره ثم يدعوه إلى التوبة، ويستر عليه، ويمهله، ويفرح بعودته، ولا يزال يفتح له أبواب الإصلاح ما دام حياً.

لكن سعة الرحمة لا تعني أن تصبح ذريعة للاستخفاف؛ فمن عرف أن الله غفور ازداد حباً وتوبة، لا جرأة وإصراراً. وليس من حسن الظن أن يعصي الإنسان ثم يطالب بالمغفرة وهو لا يريد أن يترك معصيته، بل حسن الظن أن يعلم أن الله سيقبله إذا صدق في الرجوع، وأن باب الإصلاح أكبر من ذنبه مهما بلغ. وبين الرجاء المخادع والرجاء الصادق فرق: الأول يسكن الضمير ليواصل الشر، والثاني ينهض بصاحبه من سقطته ويقوده إلى الله.

﴿شَرًّا﴾؛ والشر في حقيقته ليس ما كرهته النفس لمشقته فحسب، فقد تكره النفس دواءً فيه شفاؤها، وتحب شهوةً فيها هلاكها؛ وإنما الشر ما خالف أمر الله وأفسد الإنسان أو الحياة أو العلاقة بينهما، ولو زُنَّ بألف اسم. قد يأتي الشر في ثوب اللذة، أو المصلحة، أو العصبية، أو الانتقام، أو المجد الشخصي؛ لكن الأسماء لا تغير جوهره. ومهمة الوحي أن ينزع عن الشر أقنعتة، فلا يترك الإنسان عبداً لمقياس هواه الذي يسمى ما ينفعه خيراً ولو أهلك الآخرين، ويسمي ما يقيدته شراً ولو حفظ حقهم.

قد يظلم الحاكم ثم يسمى ظلمه ضرورة لحفظ الدولة، ويأكل القوي حق الضعيف ثم يسمى ذلك ذكاءً، ويغتتاب المرء أخاه ثم يقول إنه يصف الواقع، ويختلي الصديق عن صديقه ساعة المحنة ثم يسمى تخليه حياءً، ويخضع العالم للباطل ثم يسمى خضوعه مراعاة للمصلحة. لكن يوم رؤية الأعمال تسقط سلطة الأسماء، ويظهر الفعل في حقيقته الأخلاقية: شراً كان أم خيراً. ليست المحكمة الأخروية محكمة ألفاظ يحسن المخادعون التلاعب بها، بل محكمة حقائق يوزن فيها ما كان لا ما سُمي.

وإذا كانت الآية السابقة تفتح أبواب الخير اليومي، فإن هذه الآية تقيم حراسةً على تفاصيل الشر اليومي؛ فليس الظلم مقصوداً على الطغاة الذين يملكون الجيوش، بل قد يبدأ في بيت حين يستقوي إنسان على من لا يستطيع دفعه، وفي مكتب حين يعطل حق بلا سبب، وفي طريق حين يؤدي المرء الناس لأنه يظن أذاه يسيراً، وفي مجلس حين تُنهش سمعة غائب لا يملك الدفاع عن نفسه. إن الآية تسترد الأخلاق من حصرها في الجرائم الكبرى، وتردها إلى النظرة والنبرة والإشارة والصمت المتواطيء.

فرب كلمة قالها إنسان مازحاً تركت في قلب غيره جرحاً حمله أعواماً، ورب نظرة احتقار أشعرت فقيراً أن كرامته أقل من كرامة الآخرين، ورب وعد صغير أخلفه صاحبه فهدم ثقةً كانت تنمو، ورب سراً وثق عليه شخص فأذاعه ففتح باب ألم لم يغلق، ورب معلومة ناقصة نشرها بلا ثبوت فصارت تهمة، ثم صارت التهمة رأياً عاماً، ثم تحولت إلى ظلم كامل. قد تكون البداية ذرةً، لكن الأثر يتجاوز حجم البداية، والله يرى الذرة ويرى ما تناسل منها.

وهنا تظهر خطورة الكلمة في زمن تتضاعف فيه سرعة انتشارها؛ فالإنسان قد يكتب عبارةً في لحظة غضب، ثم يرسلها إلى فضاء لا يعرف حدود وصولها، فتؤدي آلفاً، أو تظلم بريئاً، أو تشعل تعصباً، ثم ينسى صاحبها ما كتب بينما تواصل كلمته السير. إن سهولة الفعل لا تخفف بالضرورة من ثقله؛ فمجرد أن الأذى وقع بلبسة لا بعناء لا يجعله أقل مسؤولية، بل ربما جعل الحذر أشد وجوباً. وما أسرع الذرات في عصر يستطيع فيه الفرد أن يضاعف أثرها قبل أن يمنحه ضميره فرصةً للراجعة.

وقد لا يصنع الإنسان الشر بيده، لكنه يفرح به، أو يعين عليه، أو يبرره، أو يصمت عنه صمت الراضي حين يكون قادراً على كلمة حق. وهذه مراتب تختلف أحكامها بحسب العلم والقدرة والنية والظرف، والله وحده يزنها بالعدل الكامل، غير أن السورة

تربي القلب على ألا يحصر مسؤوليته في الفعل المباشر. فالشر يحتاج إلى يد تنفذ، ولسان يزين، وعقل يبرر، وجمهور يصفق، وخائف يرى ثم يلوذ بالصمت؛ وكل واحد من هؤلاء أضاف إلى بنيانه بقدر ما بذل.

وكم من نظام ظالم لم يصنعه طاغية واحد، بل شاركت في إقامته ذرات كثيرة: موظف زور، وكاتب برر، وشاهد كتم، ومستفيد سكت، وخطيب خدّر الضمائر، وجار خاف أن يقول كلمة، وجمهور أعجبه الظلم ما دام يقع على خصومه. يجتمع الصغير إلى الصغير حتى يقوم جبل من الشر، ثم يقول كل فرد: ما قيمة ما فعلت؟ لم أكن إلا واحداً. وتجيء الآية: ذلك الواحد سيجد مثقال ذرته؛ لأن الله لا ينسب الجبل إلى قمته وحدها، بل يعلم كل ذرة شاركت في تكوينه.

وفي المقابل، تمنع الآية الإنسان من حمل ما لم يعمل؛ فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يُعاقب أحد بجريرة غيره. إن دقة الميزان التي تحصي عليه ذرته هي نفسها التي تحميه من أوزار الآخرين، فلا يُلصق به شر لم يفعله، ولا يدفع ثمن نسب أو جماعة لم يختَر فعلها، ولا تضيع براءته بسبب دعاية أو اتهام. قد تظلم محاكم الدنيا إنساناً بشبهة، أو تعاقبه لهويته، أو تجعله كبش فداء لجريمة غيره؛ أما عدل الله فيفصل بين الذرات، ويعرف ما فعل كل قلب ويد، فلا زيادة ولا نقص.

وهذا من أعظم ما يسكن قلب المظلوم الذي لم يجد في الأرض من يسمع قضيته؛ فدمعته ليست مجرد ألم ذاتي، بل دليل على شر وقع، والله يرى الشر ويرى صاحبه ويرى حجمه وآثاره. قد يكون الاعتداء في نظر الناس صغيراً لا يستحق الشكوى، لكنه عند من وقع عليه كان كسراً عميقاً، والله لا يقيس الجراح بمزاج المتفرجين، بل بعلمه الكامل. ما دام مثقال الذرة سيظهر، فلن يضيع حق لأن المجتمع استصغره، ولن تسقط مظلمة لأن صاحبها ضعيف، ولن يصبح الجاني بريئاً لأن ضحيته عجزت عن الكلام.

﴿يَرَهُ﴾؛ الكلمة نفسها التي جاءت عقب الخير تأتي عقب الشر، لتعلن أن كلا الطرفين ينتهي إلى الرؤية. سيرى الإنسان الشر الذي أخفاه، لا كما كان يراه لحظة الشهوة مزيناً ومغرياً، بل كما هو في نهايته: قبيحاً وثقلاً وحسرة. في الدنيا يرى المرء لذة المعصية ولا يرى سمها، ويرى مكسب الظلم ولا يرى ناره، ويرى انتصار الكذب العاجل ولا يرى انهيار صاحبه؛ أما في الآخرة فيُرفع الغطاء، فيلتقي الفعل بعاقبته، ويعرف الإنسان أن ما حسبه مكسباً كان ديناً مؤجلاً.

وأشد العذاب النفسي أن يرى الإنسان بنفسه ما كان يتكر نسبته إليه؛ فقد يستطيع في الدنيا أن يهرب من الاعتراف، وأن ينسج قصةً تحمي صورته الداخلية، وأن يقنع من حوله بأنه لم يخطئ، لكنه لا يستطيع أن يهرب من الرؤية حين تُعرض الحقيقة. هناك لا يعود الذنب روايةً يختلف حولها، بل يصير حاضراً أمام صاحبه، ويصبح الإنسان خصماً لنفسه؛ لأنه يرى ما لا يمكنه إنكاره، ويتذكر الإنذارات التي جاءته، والفرص التي أضاعها، والتوبات التي أجّلها.

إن رؤية الشر ليست ظلاً من الله، بل هي اكتمال معنى الاختيار؛ فالإنسان الذي اختار الفعل ينبغي أن يرى حقيقته وثمرته، وإلا لتساوى من عاش يزرع الرحمة بمن عاش يزرع الألم. ولو ضاعت ذرات الشر لكان في ذلك إهدار لذرات من حقوق المظلومين، ولو مُحيت بلا توبة ولا عفو ولا عدل لصار الوجود الأخلاقي عبثاً. لكن الله منزّه عن الظلم، يعطي كل ذي حق حقه، ويغفر لمن يشاء بحكمته، ويقتص للمظلوم، ويرضي من أصيب، ولا تنقص رحمته من عدله ولا يمنع عدله سعة رحمته.

ولا يجوز للإنسان أن يحوّل هذه الآية إلى عدسة يراقب بها ذرات شر الآخرين وينسى نفسه؛ فالسورة تخاطب كل فرد بعمله. ومن غرائب النفس أنها قد تدقق في عيوب خصومها حتى تحصي عليهم الأنفاس، ثم تتساعح مع أخطائها ولو كانت جبلاً.

ترى ذرة الشر عند من تكره، وتحتاج إلى براهين كثيرة كي تعترف بالجبل عند من تحب؛ لكن ميزان الله لا يعرف تحيزاتنا، ولا يتبدل باختلاف الأسماء. الشر شر ولو صدر من قريب، والخير خير ولو جاء من خصم، والعدل يبدأ حين نرضى بالحقيقة ولو خالفت هوى انتمائنا.

ومن معاني الآية أن الإنسان يحتاج إلى تنظيف مستمر لصحيافته؛ فكما ينظف ثوبه من البقعة الصغيرة قبل أن تتسع، ينبغي أن يبادر إلى محو الذنب بالتوبة والاستغفار ورد المظالم. لا يقل: إنها ذرة لا تستحق، لأن الذرة التي يعترف بها اليوم ويمحوها بالندم أهون من ذرة يراها غداً ولا يملك محوها. إن المؤمن لا تؤلمه التوبة مهما كشفت له من تقصير، لأنه يعلم أن ألم الاعتراف لحظة، أما ألم الإصرار فممتد.

والتوبة الصادقة ليست مجرد لفظ يُقال، بل زلزلة داخلية تخرج النفس بها أثقالها قبل يوم إخراج الأثقال؛ يضطرب بناء الكبر، ويعترف الإنسان بما فعل، ويترك الذنب، ويندم عليه، ويعزم ألا يعود، ويرد الحقوق إلى أصحابها إن تعلق الذنب بهم. ما أرحم الله حين جعل للإنسان في الدنيا قدرةً على أن يواجه عمله دون أن يهلك، وأن يبكي عليه فيتحول البكاء إلى طهارة، وأن يستدرك ما فات قبل أن تصبح الرؤية نهائية.

ومن فقه الذرة ألا يؤجل المرء الاعتذار؛ فالكلمة التي جرحت تنتظر إصلاحاً، والحق القليل الذي أخذه ينتظر رداً، والوعد الذي أخلفه يحتاج إلى تصحيح. وربما يستصغر الإنسان مظلمة في عين نفسه بينما يحملها الآخر في قلبه ثقيلة؛ وليس هو صاحب الحق حتى يقرر أنها صغيرة. قد يكون الاعتذار جملةً قصيرة، لكنها تحو أثراً طويلاً، وقد يكون رد الحق يسيراً اليوم، لكنه يصبح يوم القيامة أثقل من القدرة على الاحتمال.

وتحذر الآية من موت الحساسية الأخلاقية؛ فالقلب الحي يتألم من الذرة لأنه يرى فيها مخالفةً لمن يحب، لا لأنه يحسب حجم العقوبة وحده. أما القلب القاسي فلا يتحرك

إلا أمام الفضائح الكبيرة، لا لأن الشر يزججه، بل لأن صورته أمام الناس تهممه. المؤمن يخلو بنفسه فيحزن لزلّة لم يعلم بها أحد، لأنه يعلم أن الله رآها؛ والمنافق قد يأسف لجريمته فقط حين تتكشف، فيكون حزنه على انهدام الستار لا على انتهاك الحق.

وكلما ازداد الإنسان معرفةً بالله ازدادت دقة ضميره؛ فيرى من آفات نفسه ما كان غافلاً عنه، ويحاسب نيته على التفاتها إلى المديح، ولسانه على فضول مؤذٍ، وقلبه على احتقار مستتر. وليس ذلك لأنه يظن كل انخراط سواء، أو يغفل عن عفو الله عما لا يملكه العبد، بل لأنه يريد أن يلقي ربه بقلب سليم، ويعلم أن الصفاء الكبير يُبنى من الانتباه إلى الغبار الدقيق.

إن الآية لا تريد منا أن نعيش أسرى الماضي، بل أن نحوله إلى معرفة تدفعنا نحو مستقبل أطهر. فمن تاب من ذرة شرف فقد عرف هشاشة نفسه وحاجته إلى ربه، وربما أورثته توبته تواضعاً ورحمةً بالمذنبين لا يملكهما من لم يعرف ضعفه. وقد تصبح السقطة بعد توبة صادقة باباً إلى صعود لم يكن ليقع لولاها؛ لا لأن الذنب خير، بل لأن الله يخرج من صدق التوبة خيراً، ويجعل انكسار العبد بين يديه بدايةً لاستقامته.

وحين نضع الآيتين الأخيرتين متجاورتين، يظهر التوازن الذي تقيمه السورة في النفس:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ تقتل اليأس من قيمة المعروف، و﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ تقتل الغفلة عن خطورة الإساءة. الأولى تدفع إلى الفعل ولو كان قليلاً، والثانية تدفع إلى الكف ولو بدا الشر هيناً. الأولى تفتح القلب للرجاء، والثانية تحرسه بالخوف. وبين الرجاء والخوف يمشي المؤمن معتدلاً؛ لا يحتقر حسنة، ولا يستهين بسيئة، ولا يعجب بعمله، ولا يقنط من رحمة ربه.

وتكشف الآيات أن المعيار الأخلاقي في الإسلام ليس انتقائياً؛ فالذي يطالب بحقه في ذرة يجب أن يخشى ظلم غيره في ذرة، والذي يفرح بأن الله لن يضيع إحسانه ينبغي أن يعلم أن الله لن يضيع إساءته كذلك. لا يمكن للمرء أن يستدعي عدالة الله لنفسه ثم يطلب تعطيلاً حين تتعلق بحقوق الآخرين. من أحب العدل حقاً أحبه في الاتجاهين: حين ينصفه وحين يحاسبه، وحين يعيد إليه حقه وحين يأمره بإعادة حقوق الناس.

وهكذا تختم السورة مشهدها الكوني بذرة شر، لا لأن الشر هو الكلمة الأخيرة في الوجود، بل لأن التحذير الأخير ينبغي أن يبقى مفتوحاً في القلب بعد انقضاء التلاوة. تبدأ الأرض زلزالها، وتنتهي النفس أمام عملها؛ وبين البدء والختام تتكشف منظومة كاملة من المسؤولية. لا أرض ثابتة إلى الأبد، ولا قبر يخفي ما فيه إلى الأبد، ولا مكان يكتم خبره إلى الأبد، ولا جماعة تحمي الفرد من عمله، ولا خير يضيع، ولا شر يفلت.

ليس السؤال بعد هذه الآية: هل الشر كبير أم صغير في أعين الناس؟ بل: هل أستطيع أن أراه أمام الله؟ فكل ما يخجل الإنسان من رؤيته هناك ينبغي أن يسارع إلى تطهير صحيفته منه هنا، وكل حق لا يريد أن يطالبه به صاحبه في ذلك اليوم ينبغي أن يردّه اليوم، وكل كلمة يخشى أن تعود إليه بصوتها ينبغي أن يحبسها قبل خروجها. إن الذرة التي يتركها الآن في صحيفة غير منقاة قد تصبح أثقل ما يواجهه، والذرة التي يحوها بتوبة صادقة قد تكون بداية نجاته.

وفي اللحظة التي يؤمن فيها الإنسان حقاً بأنه سيري، تتغير طريقة عيشه؛ لا يعود الظلام ساتراً، ولا الخلوة فراغاً، ولا سكوت الناس براءة، ولا مرور الزمن محواً. لكنه لا يعيش مكسوراً تحت الخوف، بل يقظاً في رحمة الله؛ كلما زل عاد، وكلما أخطأ أصلح، وكلما وجد في قلبه ذرة شر قاومها قبل أن تكبر، وكلما رأى في طريقه ذرة خير التقطها قبل أن تفوته.

تلك هي اللحظة التي تريدها سورة الزلزلة: أن نسمع صوت الذرة قبل أن نسمع صوت الأرض، وأن نزل غفلتنا قبل أن تنزل أقدامنا، وأن نخرج من قلوبنا أثقال الخطايا قبل أن تخرج الأرض أثقالها، وأن نرى أعمالنا بعين المحاسبة اليوم قبل أن نراها بعين الحسرة غداً، ففي الحياة فسحة للتغيير، أما بعد الزلزلة فلا يبقى إلا تمام الظهور وكالجزاء.

حين تصبح الأرض كتاباً وتغدو الذرة مصيراً

تنتهي سورة الزلزلة، لكن رجفتها الحقيقية لا ينبغي أن تنتهي بانتهاء تلاوتها؛ لأنها لم تأت لتقصّ على الإنسان حادثةً ستقع في مستقبل بعيد فحسب، بل لتعيد بناء نظرتّه إلى الحاضر كله، ولتوقظه من ذلك السكون الكاذب الذي يجعله يعيش فوق الأرض كأنها لا تتغير، ويمر في الزمن كأن ساعاته لا تُحصى، ويقترب الفعل كأنه ينقضي بانقضاء لحظته. تأتي السورة لتزيل هذا الوهم من جذوره، وتقول له في آياتها المكثفة: الأرض التي تسكن إليها ستزلزل، والأجساد التي دفنتها ستخرج، والأماكن التي حسبها صامته ستحدث، والجماعات التي احتميت بها ستتفرق، والأعمال التي نسبتها سترأها، والذرات التي احتقرتها ستجدها قائمةً أمامك.

إن البنية العميقة للسورة تقوم على حركة متصاعدة من الانقلاب الكوني إلى الانكشاف الأخلاقي؛ ففي البداية تتزلزل الأرض كلها، ثم تخرج ما في أعماقها، ثم يقف الإنسان مبهوراً يسأل عن أمرها، ثم تتحدث الأرض بأخبارها، ثم يصدر الناس متفرقين ليروا أعمالهم، ثم تضيق دائرة الرؤية حتى تبلغ ذرةً من خير أو شر. وكأنّ الوحي ينقل الإنسان من رهبة المشهد الأكبر إلى مسؤولية التفصيل الأصغر؛ فلا يسمح له أن ينشغل بهول القيامة عن السؤال المتعلق بحياته: ماذا أودعتُ أنا في هذه الأرض، وأي أخبار ستروها عني، وأي أعمال سأراها حين تنتهي قدرتي على تغييرها؟

لقد بدأت السورة بالأرض لأن الإنسان جعلها موضع ثقته، وخُتمت بالعمل لأنه حقيقة رصيده. بينهما يسقط ما توهمه من ثواب ويظهر ما غفل عنه من بقايا؛ فالأرض ليست ثابتةً بذاتها، والمال لا يبقى، والمنصب لا يصحب صاحبه، والجماعة لا تحمله عن

نفسه، والصورة الاجتماعية لا تعبر به إلى الآخرة. وحده العمل يمضي معه، لا بوصفه ذكرى باهتة لحياة انقضت، بل حقيقة يراها ويعرف أنها خرجت من اختياره، وأنها كانت تتشكل يوماً بعد يوم بينما كان مشغولاً عن مصيره.

وسورة الزلزلة، على قصرها، تعيد تعريف العالم من حول الإنسان؛ فالأرض ليست مادة ميتة، بل مخلوقاً عابداً يتلقى أمر ربه ويؤدي وظيفته، وليست مجرد مساحة للمشي والبناء والدفن، بل شاهداً يحفظ أخبار العابرين فوقه. والزمن ليس نهراً يذيب الأفعال، بل وعاءً تنتقل خلاله الأعمال إلى موعد ظهورها. والإنسان ليس كائناً يتحرك في كون محايد، بل خليفة مسؤول تكتب حركته أثراً في النسيج الأخلاقي للوجود، حتى يصبح المكان الذي وطئه جزءاً من شهادته، وتغدو الذرة التي فعلها جزءاً من مصيره.

إنها سورة العدالة التي لا تنسى؛ ولذلك فهي رجاء المظلوم بقدر ما هي خوف الظالم. قد تضيع الحقوق في دهاليز المحاكم، ويهرب الجاني من وثائق البشر، ويدفن الضحية ومعه قصته، ويكتب المنتصر روايةً يبرئ بها نفسه؛ لكن الأرض نفسها لم توقع على روايته، والتاريخ الذي يكتبه البشر ليس النسخة الأخيرة من الحقيقة. سيأتي يوم تنطق فيه الأمكنة بما وقع فوقها، فلا يحتاج المظلوم إلى بلاغة المحامي كي يثبت ألمه، ولا يملك الظالم سلطةً تمنع الشهادة؛ فكل دمة لها موضع، وكل دم له أرض، ورب الأرض لا يضيع شيئاً.

لقد أعادت الآيتان الأخيرتان تعريف الصغر؛ فلا خير صغير ما دام الله يراه، ولا شر تافه ما دام سيظهر. ليست العبرة بحجم العمل في عيون الناس، بل بوزنه في ميزان الحق، وبما وراءه من نية، وما أحاط به من ظرف، وما نتج عنه من أثر. قد تصير لقمة في ساعة مجاعة أثقل من أموال كثيرة، وكلمة في ساعة خوف أرفع من خطب طويلة،

كما قد تكون النظرة ذرة لكنها تفتح في القلب باباً، والكلمة همسة لكنها تهدم كرامة، والصمت لحظة لكنه يمنح الظلم عمراً أطول.

إن منهج الذرة يخرج الإنسان من عجزه أمام ضخامة العالم؛ فلست مطالباً وحدك بإصلاح الكون، لكنك مطالب ألا تضيف إلى فسادك ذرتك، وأن تضع في ميزان إصلاحك ما تستطيع من الخير. لست قادراً على إطعام كل جائع، لكن جائعاً في طريقك حجة عليك بقدر استطاعتك؛ ولست قادراً على إيقاف كل ظلم، لكنك قادر ألا تبرره وألا تمنحه صوتك. وعلى هذا الميزان تقوم النهضة الأخلاقية: أن يرفض كل إنسان ذرة الشر التي يستطيع منعها، ويزرع ذرة الخير التي يستطيع تقديمها، ثم تتألف الذرات حتى تتغير الحياة.

وإذا كانت الأرض ستخرج أثقالها، فإن الحكمة أن يخرج الإنسان أثقال روحه قبل ذلك اليوم؛ أن يخرج مظالمه بردها، وذنوبه بالتوبة، وأحقاده بالعفو، وكبره بالتواضع، ورياءه بالإخلاص. إن كل آية عن الحساب رحمة في الدنيا قبل أن تكون حجة في الآخرة؛ لأنها تمنح العبد فرصة أن يعيد ترتيب صحيفته، ويرد حقاً، ويبرئ ذمة، ويستغفر من ذنب، ويستأنف سيرته من نقطة جديدة. ما دام القلب ينبض، لم يصبح الكتاب نهائياً بعد.

وهكذا ترد سورة الزلزلة الإنسان إلى المقياس الصحيح: لا يغتر بسكون الأرض، ولا يستخف بحركة القلب، ولا يهرب ضخامة العالم حتى يترك واجبه، ولا يحتقر صغر فعله حتى يزهد في الخير. يعيش بين زلزلة آتية وذرة باقية؛ يعرف أن النهاية عظيمة، وأن الطريق إليها مصنوع من تفاصيل دقيقة، وأن المصير لا يبنى في لحظة واحدة عند الموت، بل يتشكل الآن في كل نظرة وكلمة وخطوة وقرار.

وسياأتي يوم تهتز فيه الأرض، لكن السعيد من اهتز قلبه قبلها؛ وسياأتي يوم تخرج فيه الأرض أثقالها، لكن الناجي من أخرج أثقال ذنوبه بالتوبة قبلها؛ وسياأتي يوم تتحدث فيه الأرض، لكن الموفق من أودعها اليوم أخباراً يحب أن يسمعها؛ وسياأتي يوم يرى الناس أعمالهم، لكن البصير من رآها الآن بعين المحاسبة فأصلحها؛ وسياأتي يوم تظهر الذرة، لكن الحكيم من لم يحتقرها حين كانت لا تزال بين يديه اختياراً.